

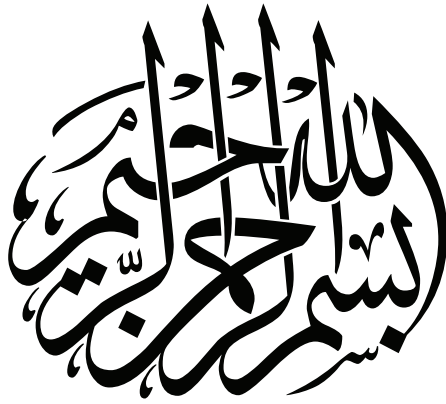
حُقُوقُ الصَّادِقِ وَكَيْفَ تَتَعَامَلُ مَعَهُ

مَحْفُوظَاتُ
جَمِيعِ الْحَقُوقِ
الطبعة الأولى
١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م

حُقُوقُ الصَّادِقِ وَكَيْفَ تَتَعَامَلُ مَعَهُ

تأليف

أحمد بن ناصر الطيار



المقدمة

أهمية الصديق

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شَرِّهِ
 أَنْفُسَنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يَضِلَّ فَلَا
 هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ
 مُحَمَّدًا عَبْدَهُ وَرَسُولَهُ، صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمْ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَأَتْبَاعِهِ
 إِلَى يَوْمِ الدِّينِ. **أما بعد:**

فمن المعلوم أن الله تعالى جعل من حكمته في عباده أن يأنس
 بعضهم مع بعض، فلا يستطيع أحد أن يعيش في عزلة وحده، فاتخذ
 الناس الأصدقاء، واضطفي الكثير منهم الأصدقاء، فترتب على ذلك
 مصالح كثيرة، وفوائد جمّة.

ومع ذلك، فقد كثرت الخلاف بين الأصدقاء، وحصل بين كثير منهم
 التفرق والعداء، وكل ذلك بسبب جهلهم بحقوق الصديق، وما له وما
 عليه.

وليست الصداقة بكثرة المجالسات، ولا بتبادل الرسائل
 والضحكات، فهذه صداقة ما إن يأتيها مكدّر إلا بددها، ولا موقف حرج
 إلا كشف عورها، وأظهر زبدها وغثاءها.

ولسان حال الكثير منهم:

وأنت أخي ما لم تكن لي حاجة فإن عرضت أيقنت أن لا أخا لي

وصدق حسان بن ثابت رضي الله عنه حين قال ^(١) :

أَخْلَاءُ الرَّحَاءِ هُمْ كَثِيرٌ وَلَكِنْ فِي الْبَلَاءِ هُمْ قَلِيلٌ
فَلَا يَغْرُرُكَ خُلَّةٌ مَنْ تَوَاحَى فَمَا لَكَ عِنْدَ نَائِبَةِ خَلِيلٍ
وَكُلُّ أَخٍ يَقُولُ أَنَا وَفِيَّ وَلَكِنْ لَيْسَ يَفْعَلُ مَا يَقُولُ
سِوَى خِلٍّ لَهُ حَسَبٌ وَدِينٌ فَذَاكَ لِمَا يَقُولُ هُوَ الْفَعُولُ

أيُّ معنى للصدقة إذا لم تُشارك صديقك عند حاجته مالك، وتُصف له ودك، وتؤثره على بعض محابك وحاجاتك.

فالصدقة لها تبعات ولوازم كثيرة، وواجبات صعبة، لا يقوم بحقها إلا الأوفياء، حتى إن بعضهم يعتبرها نوعاً من الرق.

كتب أحدهم إلى عبد الله بن المقفع يلتمس معاقدة الإخاء، والاجتماع على المخالصة والصفاء، لكنه ما أجابه، ولا ردَّ على خطابه، فحزن لذلك، وكتب إليه يعبُّ عليه، فكتب له عبد الله: إنَّ الإخاء رق، وكرهت أن أملكك رقيَّ قبل أن أعرف حُسن ملكيتك ^(٢).

واعلم أنك إذا اتَّخذت أحداً صديقاً، واعترفت بصداقته: فقد وجب عليك أن تلتزم بحقوقه عليك، وواجباته اللازمة عليك، فإن قُمت بها فقد وقَّيت وأحسنت، وإن لم تقم بها وتقاغست عنها: فدعواك بأنك صديق له دعوى باطلة، ومقولة كاذبة.

وإنَّ هذا الموضوع من أهم ما يحتاجه الناس والأقارب والأصدقاء، فكثيرٌ منهم لا يعرف حقَّ صديقه، وكثيرٌ منهم يظن الصداقة ما هي إلا تسليةً مع الصديق، وقضاءً وقتٍ معه، وما أكثر ما تفرق

(١) ديوان حسان، ص ١٨٢.

(٢) الصداقة والصديق لأبي حيان التوحيدي، ص ٤٥.

الأصدقاء، وتهاجر الأخلاء بسبب أمورٍ تافهةٍ لو صدقت صدقاتهم لَمَا حصل بينهم ما حصل.

وقد بحثت عن كتابٍ لا بالطويل المُمل، ولا بالمُختصر المخل، يعتني بحقوق الصديق، وآداب معاشرته، وبيان حقيقته، يُبين بأدق التفاصيل، دون إسهابٍ وتطويل، لا يدعُ شاذةً ولا فاذةً إلا ذكرها، ولا أمرًا يحتاجه الأصدقاء إلا بينها، فلم أجد - حسب اطلاعي - ما يُوفي بهذا الغرض الذي لأجله ألفت الكتاب، بل أكثرها نقولاتٌ عن الحكماء والأدباء، ونصائحٍ عامةٍ، دون الدخول في أدق التفاصيل، ودعمها بالتأصيل والتمثيل، فاستعنت الله تعالى بتأليف هذا الكتاب.

وقد تأملتُ في صنوف الأصدقاء والأخلاء، فما من عيبٍ أو سلوكٍ خاطئٍ في أحدهم إلا حذرتُ منه، وما من خلقٍ أو سلوكٍ سديدٍ رأيتهُ فيهم إلا بينتهُ وأثنتُ عليه، وعضدتُ كلامي بأدلة الكتاب والسنة، وأقوال وأشعار العرب والمسلمين والحكماء.

ثم قُمتُ بتوزيع نسخٍ كثيرةٍ منه على مختلف الطبقات من الناس، فأعطيت طلاب العلم والمشايخ والأدباء، وأعطيتُ بعض العوام من أهل الخبرة والذوق في الصداقة، وأعطيت الصغير والكبير؛ والنساء والرجال، فاستحسنوا ما قررته وذكروه.

واستفدتُ منهم كثيرًا - جزاهم الله عني خيرًا -، وزاد بعضُهم حقوقًا لم تخطر ببالي فأضفتها، وصححَ آخرون أخطاءً فاتت عليّ، فشكر الله لكلِّ من ساهم في هذا الكتاب، وجعله في ميزان حسناتهم.

وكلُّ هذا لأجل أن أصلَ إلى آراء عموم الناس في هذه الحقوق

والآداب، وهل هم يُعاشونها ويلمسونها؟، وهل ما ذكرته يُعالج الأخطاء الموجودة عند أكثر الأصدقاء؟.

علمًا بأني لم أستقص الأدلة من الكتاب والسنة على هذه الحقوق والآداب، وإنما ذكرت شيئًا منها.

وليُعلم كذلك، أن هذه الحقوق ليست خاصة بالصديق، بل قد يشترك غيره ببعضها.

وقد قلتُ في هذا الكتاب وفي قارئه:

حُقُوقُ الصَّدِيقِ يَا أُخِيَّ مُوَشَّحٌ	بكلِّ صفاتِ الصَّحْبِ يُجَلِّي وَيُوضِحُ
وتَعْرِفُ وصفًا للطَّبَاعِ التي بها	يُرِيدُ الصَّدِيقُ أَنْ تَكُونَ وَيَطْمَحُ
وتُصَبِّحُ عند الصَّحْبِ أَفْضَلَ مَعْنَمٍ	وأحْسَنَ مَصْحُوبٍ فَتَهْنَأُ وتَفْرَحُ
ويُفْصِحُ عن شَرٍّ وَقَبِيحٍ لبعضهم	فَتَحْذَرُ منهمْ ثم تَتَنَأَى وتَطْرَحُ
وَأَسْعَدُ أَيَّامِي عَلَيَّ نَصِيحَةً	ورأْيٍ سديدٍ منك تُهْدِي وتَمْنَحُ

فاعملْ - أيها الصديق الموفق - بما بيَّنته وقرَّرتَه في هذا الكتاب من أوصافِ الصديقِ الصالح، تكن صديقًا نافعًا، وصاحبًا مؤنسًا.

وكن على حذرٍ من الأوصافِ السيِّئةِ والغثَّةِ التي حدَّرتُ منها، حتى لا تكون ثقیلاً على أصدقاؤك، بغیضاً إلى أصحابك.

وباعدُ عن جليسِ السوء، وصاحبِ الطباعِ الفاسدة، والأخلاقِ القبيحة، فإنه سيُعديك ولا بدَّ.

واحذرْ معاشرَةَ الدَّنِيِّ فإنها تُعدي كما يُعدي الصَّحِيحُ الأَجْرُبُ

وتمسك بالصديق الذي يستحق أن تقضي كثيراً من وقتك معه، وهو الذي وصفته لك، وذكرت ما يميِّزُ به من سلوكٍ وأخلاقٍ عاليةٍ رفيعةٍ؛ حتى تستفيد منه في دينك ودُنْيَاكَ، ويقفَ معك في يُسْرِكَ وبلواك.

أَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يَجْعَلَكَ مُبَارَكًا مَوْفَقًا، إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ مُجِيبٌ،
وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

المؤلف

أحمد بن ناصر الطيار

إمام وخطيب جامع

عبد الله بن نوفل بالزلفي

البريد الإلكتروني:

ahmed0411@gmail.com

رقم الجوال: ٠٥٠٣٤٢١٨٦٦

معنى كلمة الصديق في اللغة والاصطلاح

لا بدّ أن نقف على معنى كلمة الصديق في اللغة أولاً، حتى نعرف مدلولاتها العميقة التي توضح قيمة الصديق وحقوقه.

يقول علماء اللغة: كلمة صِدْق: أصلٌ يدلُّ على قوّة في الشيء، فالصّدُق: هو القوّة والاستقامة في الكلام، والصّدَاقَة: مشتقة من الصّدق في المودّة والمحبة، والإخلاص والنصح في الصّحبة.

تقول فلانٌ صديقي: أي: صدّقني المودّة والنصيحة^(١).

فهي التي منشؤها الباطن لا الظاهر، والقلب لا القالب.

لعمرك ما ودُّ اللسان بنافع إذا لم يكن أصل المودّة في القلب «وإنما سمي الصديق صديقاً بصدقه لك، وسمي العدو عدواً لعدوه عليك لو ظفر بك»^(٢).

فالصديق هو الذي يصدقك في النصيحة والمحبة، ويقف معك عند الضيق والحاجة، وحال الأيسر والإعسار، وعند الفاقة والإقتار.

الصداقة الخالصة حقاً: هي التي تشتدّ عند الأزمات، وتقوى عند الملمات، وتظهر جليّة عند الحاجات.

الصديق الذي نعنيه هو الذي قال فيه العتابي: ما أحوجك إلى أخ

(١) يُنظر: مقاييس اللغة لابن فارس، مادة: (صدق).

(٢) الصداقة والصديق، ص ٣٧٧.

كريم الأخوة، كامل المروءة، إذا غبت خلفك، وإذا حضرت كنتك^(١)، وإذا نكرت عرفك، وإذا جفوت لطفك، وإذا بررت كافأك، وإذا لقي صديقك استزاده لك، وإن لقي عدوك كف عنك غرب العادية^(٢)، وإذا رأيته ابتهجت، وإذا باثته^(٣) استرحت^(٤).

الصديق الذي يشتري بماء الذهب، وتَهون في طلبه المشقة والتعب: «كالغيث أين وقع نفع، وكالشمس حيث أوفت أحيث، وكالأرض ما حملتها حملت»^(٥).

«الصديق لا يُراد ليؤخذ منه شيء، أو ليعطي شيئاً، ولكن ليسكن إليه، ويعتمد عليه، ويستأنس به، ويستفاد منه، ويستشار في الملّم، ويُنهض في المهم، ويُترّين به إذا حضر، ويتشوق إليه إذا سفر، والأخذ والإعطاء في عرض ذلك جاريان على مذهب الجود والكرم، بلا حسد، ولا نكد، ولا تلوم، ولا تلاوم»^(٦).

الصديق حقاً هو الذي يكون لسان حاله كما قال بعضهم^(٧):

ما ودّني أحدٌ إلا بذلت له	صفو المودة مني آخر الأبد
ولا قلّاني وإن كان المُسيءُ بنا	إلا دعوتُ له الرحمنَ بالرّشد
ولا أئتمنتُ على سرّ فبحثُ به	ولا مددّتُ إلى غير الجميل يدي
ولا أقولُ: نعم يوماً فأتبعها	منعاً ولو ذهبتُ بالمال والولد

(١) أي: ساعدك وأعانك.

(٢) أي: ردّ عنك حدةً وجفاء الأعداء.

(٣) أي: بحث له بما يختلج في صدرك.

(٤) الصداقة والصديق لأبي حيان التوحيدي، ص ٥١.

(٥) الصداقة والصديق، ص ٣١٨.

(٦) الصداقة والصديق، ص ٩٣.

(٧) الصداقة والصديق، مع بعض التصرف في البيت الأخير.

ولا أخونُ خليلي حال غيبته حتى أُغيبَ في الأكفان واللحد
الصديق الوفيّ النقي: هو الذي يجتمع فيه أمران:

- ١ - أن يسوءه ما ساء صديقه، ويسره ما سرّه.
- ٢ - لا يميل إلى منفعة دنيويّة، ولا يفسدُ وده إن منعه شيئاً
يحتاجه^(١).

فحبّه قد تملّك قلبه، وميله إليه لأخلاقه ودينه، لا إلى ماله
وعطائه.

ومثل هذا ليس بمستحيل، ولا بمُستعصٍ عن التحصيل، ولا صعب
المنال، ولا شديد المُحال، بل هو في كل زمانٍ ومكانٍ، وإن كان قليلاً
نادرًا.

فقد ثبت عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنه قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
يَقُولُ: «إِنَّمَا النَّاسُ كَالِإِبِلِ الْمَائَةِ لَا تَكَادُ تَجِدُ فِيهَا رَاحِلَةً». متفق عليه^(٢).
قال الحافظ رحمته الله: الْمَعْنَى: لَا تَجِدُ فِي مِائَةِ إِبِلٍ رَاحِلَةً تَصْلُحُ
لِلرُّكُوبِ؛ لِأَنَّ الَّذِي يَصْلُحُ لِلرُّكُوبِ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ وَطِينًا سَهْلَ الْإِنْقِيَادِ،
وَكَذَا لَا تَجِدُ فِي مِائَةٍ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَصْلُحُ لِلصُّحْبَةِ، بِأَنْ يُعَاوَنَ رَفِيقَهُ
وَيُلِينُ جَانِبَهُ. ١. هـ^(٣).

وليس كما قال أبو حيان التوحيدي رحمته الله^(٤): وإذا أردت الحق
علمت أن الصداقة، والألفة، والأخوة، والمودة، والرعاية، والمحافظة

(١) رسائل ابن حزم، ص ٣٦١، روضة العقلاء، ص ٧٦، وهذا هو التعريف الاصطلاحي
للصديق.

(٢) البخاري (٦٤٩٨)، ومسلم (٢٥٤٧).

(٣) فتح الباري ١١/٤٠٧.

(٤) الصداقة والصديق، ص ٨٩.

قد نبذت نبذًا، ورفضت رفضًا، ووطئت بالأقدام، ولويت دونها الشفاه، وصرفت عنها الرغبات. ١.١ هـ.

بل هم الحمد لله بيننا وحولنا، ولكن ربما لم تقع عين كثيرٍ منا على أحدٍ منهم، فمن ظفر به، فقد ظفر بحظِّ وافر، وخيرٍ عظيم.

وإذا صَفَا لك مِنْ زَمَانِكَ وَاحِدٌ فَهُوَ الْمَرَادُ وَأَيْنَ ذَاكَ الْوَاحِدُ
فهم اللذة الروحية، والسعادة والراحة القلبية، ومُجالستهم تنزيل
الهموم، وتُجلي الغُوم.

وما بَقِيَتْ مِنَ اللَّذَاتِ إِلَّا محادثة الرجال ذوي العقول
وقد كانوا إذا عُدُّوا قَلِيلًا فقد صاروا أَقَلَّ مِنَ الْقَلِيلِ
إخوان الصِّفَاءِ خَيْرٌ مِنْ مَكَاسِبِ الدُّنْيَا، هُمْ زِينَةٌ فِي الرِّخَاءِ، وَعِدَّةٌ
فِي الْبَلَاءِ، وَمَعُونَةٌ عَلَى الْأَعْدَاءِ.

لعمرك ما مالُ الفتى بذخيرةٍ ولكنَّ إخوان الصِّفَاءِ الذِّخَائِرُ
وبعض الناس يُبالغ في طلب الكمال في الأصدقاء، ويرى أنَّ
الصديق حقًّا مَنْ كفاه حاجاته، ولَبَّى له جميع رغباته، وكلما طلب منه
شيئًا بادر في تنفيذ طلبه، وهذا لم يطلب صديقًا بل طلب خادمًا.

قال أبو حيان التوحيدِي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: قلت للهائم أبي علي: من تحب أن
يكون صديقك؟ قال: من يُطْعِمُنِي إذا جعت، ويكسوني إذا عريت،
ويحملني إذا كللت، ويغفر لي إذا زللت!!.

فقال له علي بن الحسين العلوي: أنت إنما تريد إنسانًا يكفيك
مؤونتك، ويكفلك في حالك، كأنما تمنيت وكيلًا فسميته صديقًا، فما
أحار جوابًا. ١.١ هـ. (١)

(١) الصداقة والصديق، ص ١٩٥.

ومتى ظفرت بهذا الصديق الوفي، والخليل الصفي، فاحذر أن تفعل ما يُسبب فتور صحبتكم، ونشوء الخلاف بينكم، وذلك بعدم مراعاة الحقوق التي سأذكرها بحول الله تعالى.

وقد أوصى كثير من الحكماء والمُجربين الصديق ألا يتعامل بالتجارة مع الصديق المُخلص؛ لأنَّ التجارة يحصل فيها ما يُكدر خاطر، ويوقع في النفس نوعاً من حظوظ النفس، فيؤدّي ذلك إلى حصول الخلافات وربما القطيعة، والشواهد على ذلك كثيرة جداً، وأعرف من الإخوان من تقاطعوا لسنواتٍ طويلةٍ عندما عمِلوا بالتجارة معاً.

وبالجملة: فأبى أمر تظن من قريب أو بعيد أنه يؤثر على صديقك فاجتنبه، وأبى أمر أو سلوك يُؤدّي إلى زيادة الألفة والمحبّة فبادر إليه. قال أبو حاتم رحمّه الله: الواجب على العاقل أن يعلم أنه ليس من السرور شيء يعدل صحبة الإخوان، ولا غم يعدل غم فقدهم، ثم يتوقّى جُهدَهُ مُفاسدَةً من صافاه، ولا يَسْتَرْسِلُ إليه فيما يَشِينُهُ. (١) هـ.



(١) روضة العقلاء، ص ٧٩.

مراتب الأصدقاء

اعلم أَنَّ الأصدقاء على ثلاث مراتب:

المرتبة الأولى: أصدقاءٌ كالغذاء الذي تقتات منه، يُقَوِّي رُوحَكَ، ويصفي خاطرك، ولا بد لك منه على كل حال؛ لأنه قوام حياتك، وزينة دهرِكَ.

وهذا هو الصديق الذي صَنَّى لك وُدَّهُ، وأخلصك نُصحَهُ، وأغدق عليك من علمه وفهمه، وأثر عليك بصلاحه وأخلاقه.

المرتبة الثانية: أصدقاءٌ كالدواء يحتاج إليه في الحين بعد الحين على مقدارٍ محدود، وهؤلاء هم الذين لا شرَّ فيهم، ولا صلاح تَرجو منهم، بل تجد بغيتك عند لقائهم، وتأنس في مُجالستهم. وهؤلاء لا تُكثر مُجالستهم، ولا تُدمُّ مُخالطتهم؛ حتى لا يضيعَ وقتك دون طائل.

المرتبة الثالثة: أصدقاءٌ كالداء الذي يُمرض، والجرب الذي يُعدي، وكالسُّم الذي لا ينبغي أن تُقرِّبه فإنه سببُ هلكتك، وهؤلاء هم جلساء السوء، وأصحاب الطباع القبيحة، والأخلاق المشينة.



أيهما أصعبُ: ابتداءُ الصداقة أم دوامُها؟

لا شك أن ابتداءَ الصّحبةِ أسهلُّ وأيسرُ من دوامِها، فابتدائها لا يحتاج مزيدَ كلفةٍ.

قال أبو حيان التوحّيدي رَحِمَهُ اللهُ: سمعت ابن العميد يقول: إنشاء المعرفة صعب.

قال أبو إسحاق الصّابي: تربيتها أصعب من إنشائها.

قال: فعرضت هذا الكلام على أبي سليمان^(١) فقال: أما الإنشاء فإنما صعب لأنه لا أوائل له يُناط بها، ويُؤسّس عليها، وأما التربية فإنما صعبت أيضًا لأنها تستعير من الإنسان زمانًا مديدًا هو يشح به، وعناءً متصلًا يشتد صبره عليه، ومالًا مبذولًا قلّمًا تطيب النفس بإخراجه إلا إذا كان الكرم له طباعًا، ويجد من ضريته إليه نزاعًا^(٢).



(١) هو: محمد بن طاهر بن بهرام السجستاني، أبو سليمان المنطقي: عالم بالحكمة والفلسفة والمنطق.

من أهل سجستان، سكن بغداد، ولزم منزله، لعور فيه وبرص كانا يمنعه من غشيان منازل الأُمراء والوزراء. وأقبل العلماء والحكماء عليه. له عدّة تصانيف. الأعلام ٦/ ١٧١.

(٢) الصداقةُ والصديق، ص ٢٤٢.

متى تحكم على أحدٍ أنه صديق؟

لا تحكم على أحدٍ أنه صديقٌ صادقٌ مُخلص، ولا تُثنِ عليه ثناءً مُطلقاً، ولا تُخلِصْ له وُدَّك وحبَّك، حتى تُجربَه في أربعةِ أمورٍ أو بعضها:

الأمر الأول: في السفر، فكم من صديقٍ مُعجَبٍ بصديقه أيّما إعجاب، ويمدِّحُه بإطراءٍ وإسهاب، فما إن سافر معه، وأسفر عن أخلاقه ودقائق طباعه، حتى عاد من سفره ذامًّا له، كارهاً مُجالسته، بل بعضهم لم يُكمل سفره وعاد إلى وطنه.

الأمر الثاني: عند الضيق والحاجة والأمور المالية، فعند الأزمات والشدائد، يتبيَّن الصديقُ الوفيُّ من الرديِّ، «وفي تقلُّب الأحوال علمٌ جواهر الرجال»^(١).

جزى الله الشدائدَ كُلَّ خيرٍ عرفتُ بها عدوي من صديقي

الأمر الثالث: حال الخصومة وسوء التفاهم، فبعض الناس قمةٌ في الأخلاق والبشاشة والأدب، ولكن حينما يرى أمراً لا يُعجبه من صديقه، أو حصل نقاشٌ أو خلافٌ أو خصامٌ تبدَّلت أخلاقه الحسنة، وأصبح مُرَّ المذاق، عسير الأخلاق، سريع الشقاق.

وصدق الشاعر^(٢):

(١) الإمتاع والمؤانسة لأبي حيان التوحيدي (المتوفى: نحو ٤٠٠هـ)، ص ٢٢٦.

(٢) السحر الحلال في الحكم والأمثال لأحمد الهاشمي، ص ٥٩.

غَايِظُ صَدِيقِكَ تَكْشِفُ عَنْ ضَمَائِرِهِ وَتَهْتِكُ السِّرَّ عَنْ مَحْجُوبِ أَسْرَارِ
 قَالَ أَبُو حَاتِمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: الْعَاقِلُ يَسْتَخْبِرُ أُمُورَ إِخْوَانِهِ قَبْلَ أَنْ يُؤَاخِيَهُمْ،
 وَمِنْ أَصْحَحِ الْخَبْرَةَ لِلْمَرْءِ وَجُودُ حَالَتِهِ بَعْدَ هَيْجَانِ الْغَضَبِ.
 ثُمَّ ذَكَرَ بِسَنَدِهِ عَنْ أَحَدِ الْحُكَمَاءِ قَوْلَهُ: إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تُؤَاخِيَ رَجُلًا
 فَأَغْضِبْهُ قَبْلَ ذَلِكَ، فَإِنْ أَنْصَفَكَ عِنْدَ غَضَبِهِ وَإِلَّا فَدَعِهِ.
 وَرَوَى عَنْ سَفِيَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: اصْحَبْ مَنْ شِئْتَ ثُمَّ اغْضِبْهُ، ثُمَّ
 دُسَّ إِلَيْهِ مِنْ يَسْأَلُهُ عَنْكَ. ١. هـ (١).

الأمر الرابع: كثرة المخالطة، فكم من إنسانٍ يُغريك مظهره،
 ويسحرك لسانه، فتطمع في صحبته، فما إن تُخالطه وتكثر من مُجالسته
 حتى تفوح منه ريحٌ نتنة، ويغورَ طيبُ فعالة وأقواله ليَطْفَحَ قُبْحُهُ وَسُوءُ
 خِلَالِهِ.

فَلَا يَغْرِنُكَ نَوْرٌ رَاقٍ مِنْظَرُهُ إِذَا تَفَتَّقَ عَنْ مُرٍّ مِنَ الشَّمْرِ
 سَمِعَ عَمْرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رَجُلًا يُثْنِي وَيَمْدَحُ رَجُلًا فَقَالَ:
 أَسَافَرْتَ مَعَهُ؟ قَالَ: لَا، قَالَ: أَخَالَطْتَهُ؟ قَالَ: لَا، قَالَ: هَلْ كَانَتْ بَيْنَكَ
 وَبَيْنَهُ خِصُومَةٌ؟ قَالَ: لَا، قَالَ: وَاللَّهِ الَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ مَا تَعْرِفُهُ (٢).

وَاحْذَرِ أَنْ تَتَبَسَّطَ مَعَ الصَّدِيقِ وَتَجْتَرِيَ عَلَى كَثِيرٍ مِنَ الْمَزَاحِ
 وَتَكْشِفَ لَهُ الْأَسْرَارَ قَبْلَ أَنْ تُجْرِبَهُ فِي هَذِهِ الْأُمُورِ أَوْ أَحَدِهَا.
 وَلَا تَحْمَدِ الْمَرْءَ قَبْلَ الْبَلَاءِ وَكُنْ حَذِرًا قَبْلَ أَنْ تُخْتَبِرَ
 فَلَا تَغْتَرِ بِأَحَدٍ مَهْمَا كَانَ، وَلَا تُعْجَبْ بِهِ حَتَّى تُجْرِبَهُ وَتُخْتَبِرَهُ،
 وَتَتَعَرَفَ عَلَى طِبَاعِهِ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِهِ.

(١) روضة العقلاء، ص ٧٩.

(٢) موسوعة ابن أبي الدنيا ٣٢٩/٧.

لَا يُعْجِبَنَّكَ صَاحِبٌ حَتَّى تَبَيَّنَ مَا طِبَاعُهُ
 «واختبر من اشتبهت حاله عليك، لتعلم مُعْتَقَدَهُ فِيكَ، فتدري أين
 تضعه منك؛ فَإِنَّ الْأَلْسَانَ لَا تَصْدُقُ عَنِ الْقُلُوبِ؛ لَمَّا يَتَصَنَّعُ الْمُدَاجِي^(١)
 وَيَتَكَلَّفُهُ الْمُدَاهِنَ.

فَإِنْ وَقَفْتَ بِكَ الْحَالُ عَلَى الْاِرْتِيَابِ، اعْتَقَدْتِ الْمُوَدَّةَ فِي ظَاهِرِهِ،
 وَأَخَذْتِ بِالْحَزْمِ فِي بَاطِنِهِ.

وَإِذَا أَفْنَعَكَ الْإِعْضَاءُ عَنِ الْاِحْتِبَارِ فَلَا تَتَخَطَّهَ^(٢)، فَأَكْثِرِ الْأُمُورَ
 تَمْشِي عَلَى التَّعَاغُلِ وَالْإِعْضَاءِ.

فَقَدْ قَالَ أَكْثَمُ بْنُ صَيْفِي: مَنْ تَشَدَّدَ نَفْرًا، وَمَنْ تَرَاحَى تَأَلَّفًا، وَالسَّرُّ
 فِي التَّعَاغُلِ.

وَقَلَّمَا جُوهَرَ الْمُعْضِي وَقُوطِعَ الْمُتَعَاغِلِ، مَعَ انْعِطَافِ الْقُلُوبِ عَلَيْهِ،
 وَمِثْلِ النُّفُوسِ إِلَيْهِ، وَهَذَا مِنْ أَسْبَابِ السَّعَادَةِ وَحَسَنِ التَّوْفِيقِ^(٣).

وَهُنَاكَ عِلَامَاتٌ لَا تَحْتَاجُ وَقْتًا طَوِيلًا لِلتَّحَقُّقِ مِنْهَا، مَتَى مَا رَأَيْتَهَا
 فِي أَيِّ إِنْسَانٍ فَاحْذَرُ أَنْ تُفَكِّرَ فِي صِدَاقَتِهِ؛ لِأَنَّهَا تَدُلُّ عَلَى حُمَقِهِ، مِنْهَا:
 «سُرْعَةُ الْجَوَابِ، وَتَرْكُ التَّثَبُّتِ، وَالْإِفْرَاطُ فِي الضَّحْكَ، وَكثْرَةُ الْاِلْتِفَاتِ،
 وَالْوَقِيعَةُ فِي الْأَخْيَارِ، وَالْاِحْتِلَاطُ بِالْأَشْرَارِ»^(٤).

وَاخْتَرِ صَدِيقَكَ مَلَائِمًا لِخُلُقِكَ وَتَوَجُّهِكَ، مَنَاسِبًا لَطَبْعِكَ، فَإِنَّ
 التَّبَايِنَ وَالْاِحْتِلَافَ مَدْعَاةً لِلتَّنَافُرِ، مُحَرِّضَةً لِلْقَطِيعَةِ - غَالِبًا -؛ وَقَدْ قِيلَ:

(١) هُوَ الْعَدُوُّ الْمَخْفِي عِدَاوَتَهُ، وَالسَّيِّئُ الْخُلُقِ الَّذِي يَتَظَاهَرُ بِالْأَخْلَاقِ الْجَمِيلَةِ، وَبَيْنَ
 جَنِيهِ أَخْلَاقٌ غَنَّةٌ يُخْفِيهَا، لِمَصْلَحَةٍ يَرْتَجِيهَا.

(٢) أَي: إِذَا رَضِيتَ بِالْإِعْضَاءِ وَالْمُدَارَاةِ عَنِ اِحْتِبَارِهِ وَالتَّأَكُّدِ مِنْ حَقِيقَتِهِ وَصَدَقَهُ: فَاصْتَفِ
 بِهِ، وَلَا تَتَجَاوَزْهُ.

(٣) نِهَآيَةُ الْأَرَبِ فِي فَنُونِ الْأَدَبِ ٦/١١٨.

(٤) رَوْضَةُ الْعُقَلَاءِ، ص ١٠٥.

«الصاحب كالرُقعة في الثوب فأطلبه مشاكلاً»^(١) «^(٢)» .

وقد يجد بعضُ الناس انجذاباً نحو أحدٍ من أوّل لقاءٍ، وقد بينَ ﷺ سبب ذلك فقال: «الأرواحُ جنودٌ مجنّدةٌ، فما تعرّفَ منها اتّكَلَفَ، وما تناكَرَ منها اختَلَفَ». متفق عليه^(٣) .

ومعنى الحديث: أنّ الأرواحَ أجناسٌ مُختلفة، وأنواعٌ مُتباينة، فقد تراتح النفس لشخصٍ ولا تراتح لغيره، وقد تُقبل على أحدٍ وتُحبه وتهواه، وتنفر من آخرٍ ولا تحبُّ صحبته .



(١) أي: مُشابهًا لك. تقول: شاكلت فلانًا شابهته ومائلته، وتقول: وما شاكل ذلك: ما كان على نمطه.

(٢) التذكرة الحمدونية لابن حمدون ٢/٣٤.

(٣) البخاري (٣٣٣٦)، ومسلم (٦٨٧٦).

التحذير من جلساء السوء

اجتهد - أيها الصديق الموفق - غاية جهدك، واحرص غاية طاقتك: ألا تُصاحب إلا الصالحين، ولا تُخالط إلا الطيبين.

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الْمَرْءُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ فَلْيَنْظُرْ أَحَدَكُمْ مَنْ يُخَالِلُ»^(١).

«وَأَمَّا الْفَاسِقُ الْمَصْرُِّ عَلَى فِسْقِهِ فَلَا فَايِدَةَ فِي صُحْبَتِهِ، بَلْ مُشَاهَدَتُهُ تَهْوُنُ أَمْرَ الْمَعْصِيَةِ عَلَى النَّفْسِ وَتُبْطِلُ نُفْرَةَ الْقَلْبِ عَنْهَا، وَلَآنَ مَنْ لَا يَخَافُ اللَّهَ لَا تُؤْمَنُ عَائِلَتُهُ، وَلَا يُوثَقُ بِصِدَاقَتِهِ، بَلْ يَتَغَيَّرُ بِتَغْيِيرِ الْأَعْرَاضِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تُطْعَمَنَّ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ، عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ [الْكَهْفِ: ٢٨]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَاعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّى عَن ذِكْرِنَا وَلَوْ يُرِيدُ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ [النَّجْمِ: ٢٩]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَن أَنَابَ إِلَيَّ﴾ [الْقُرْآنِ: ١٥] وَفِي مَفْهُومِ ذَلِكَ زَجْرٌ عَنِ الْفَاسِقِ»^(٢).

وكلُّ الأصدقاء والأخلاء: سينقلبون يوم القيامة أعداء، إلا من كانت صحبته لصديقه لأجل الله تعالى.

قال تعالى: ﴿الْأَخْلَاءَ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُم لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧] قال ابن كثير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أي كل صداقة وصحابة لغير الله فإنها تنقلب يوم القيامة عداوة، إلا ما كان لله وَجَّكَ فَإِنَّهُ دَائِمٌ بَدْوَامِهِ. ا.هـ.

(١) رواه الإمام أحمد (٨٤١٧)، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة المختصرة (٩٢٧).

(٢) إحياء علوم الدين ١٧١/٢.

وإذا لم تستطع مُعاداته في الظاهر، فَدَارِهِ قَدْرُ الإِمْكَانِ.

تجنب صديق السوء واضرم حباله فإن لم تجد منه مَحِيصًا فداره
وما أجمل هذه الوصية العظيمة من أحد السلف: لا تصحب
الأشرار، ولا تشتغل عن الله بمجالسة الأَخيار^(١).

نعم، لا تُجالس ولا تُصاحب جلساء السوء، فإنك لا محالة آخذٌ
من طبعهم، ومُقتدٍ بسلوكهم وفجورهم.

قال الأصمعي: سمعت أعرابياً يقول: كما أن الصديق يُحوّلُ
بالجفاء عدوًا، كذلك العدو يُحوّلُ بالصِّلَة صديقًا.

واحذر معاشرَةَ الدنيءِ فإنها تُعدي كما يعدي الصحيح الأجرُ
وقال بعضُ السلف: لَأَنْ يُبْغِضَكَ عَدُوُّكَ الْمَسْلُومُ خَيْرٌ مِنْ أَنْ يُحِبَّكَ
عَدُوُّكَ الْفَاجِرُ^(٢).

وقال مالك بن دينار رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: كُلُّ أَخٍ وَجَلِيسٍ وَصَاحِبٍ، لَا تَسْتَفِيدُ
مِنْهُ فِي دِينِكَ خَيْرًا: فَاذْبُدْ عَنْكَ صَحْبَتَهُ^(٣).

وبادرْ بتركه، ولا تُجامله على حساب أخلاقك ودينك، كما قال
الشاعر^(٤):

فَاهْجُرْ صَدِيقَكَ إِنْ خِفْتَ الْفَسَادَ بِهِ وَاخْتَرْ شَرِيفًا حَلِيمًا وَاسِعَ الطَّيِّبِ
وَالْكَفْ تُقَطِّعُ إِنْ خِيفَ الْهَلَاكُ بِهَا عَلَى الذَّرَاعِ بِتَقْدِيرٍ وَتَسْبِيبِ

(١) الحلية (تهذيبه) ٢٨٩/٣.

(٢) الصداقة والصديق، ص ٢٤٠.

(٣) الحلية (تهذيبه) ٣٣٤/٢.

(٤) ديوان أبي العلاء المعري، والشطر الثاني من البيت الأول فيه: إنَّ الهجاءَ لمبدوءٌ
بتشبيب.

ولكن غَيْرَتُهُ لِيَكُونَ مُنَاسِبًا لِمَا أَنَا بِصَدَدِهِ.

(ولا تشتغل عن الله بمجالسة الأختيار)، ما أجمل أن يعي هذا الكلام ويفهمه أولئك الأختيارُ الصالحون، الذين انشغلوا بأصدقائهم عن العلم وتحصيله، وعن الخلوة بالله ولذة الأُنسِ به، وعن حقوقِ الأهل والوالدين، فحال الكثير منهم، كحال الشمعة، تُضيء للناس وتنفعهم، لكنها في المُقابل تُحرق وتُفني نفسها، ولا بدَّ مع الأيام أن ينطفئ ضوء الشمعة.

يقول أحد الحكماء الذين لهم باعٌ وخبرةٌ في الصداقة: إخوان السوء ينصرفون عند النكبة، ويُقبلون مع النعمة، ومن شأنهم التوسل بالإخلاص والمحبة إلى أن يظفروا بالأُنس والأمن والثقة؛ وإن رأوا خيراً ونالوه لم يذكروه ولم يشكروه، وإن رأوا شراً أذاعوه ونشروه، فإن أدمت مواصلتهم فهو الداء المعضل المُخوف على المُقاتل، وإن استرحت إلى مُصارمتهم ادَّعوا الخبرة بك لطول العشرة لك، فكان كذبٌ حديثهم مُصدِّقاً، وباطلهم محقِّقاً^(١).

وقال الراغب الأصفهاني رَضِيَ اللهُ عَنْهُ^(٢): «وقد أحسن الذي قال: إنَّ الأخَّ الصالحَ خيرٌ لك من نفسك؛ لأنَّ النفسَ أمارَةٌ بالسوء، والأخُّ لا يأمرُك إلا بالخير» ١.١.هـ.

ويجب على الصديق أن يعظ وينصح جليس السوء، وخاصةً إذا ابتلي بمُجالسته، وليستغل كلَّ فرصةٍ لنصحه، وكلَّ مُناسبةٍ لوعظه. وقد يكون الوعظ بأسلوبٍ لطيفٍ غيرٍ مُباشر، كما فعل محمد بن واسع رَضِيَ اللهُ لَهُ للرجل الذي قال له: إني لأحبك في الله، قال: فأطع من تحبني فيه!^(٣)

(١) الصداقة والصديق لأبي حيان التوحيدي، ص ٢٩.

(٢) محاضرات الأدباء ١/٣٣١.

(٣) الصداقة والصديق، ص ٢٤٠.

فضل الأخوة والصحبة في الله، والإحسان إليهم

لا شك أن اتخاذ الصديق الصالح من الأعمال الصالحة التي يتقرب بها العبد إلى الله تعالى، قال ﷺ: «سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ، يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ - وذكر منهم -: وَرَجُلَانِ تَحَابَّا فِي اللَّهِ اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ». متفق عليه^(١).

قال بلال بن سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَخُ لَكَ كُلَّمَا لَقَيْكَ ذَكَرَكَ بِرُؤْيَيْهِ رَبِّكَ، خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَخٍ كُلَّمَا لَقَيْكَ وَضَعُ فِي كَفِّكَ دِينَارًا^(٢).

وقال شيخ الإسلام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: الْمَخْلُوقُ إِذَا أَحَبَّ لِلَّهِ كَانَ حُبُّهُ جاذِبًا إِلَى حُبِّ اللَّهِ، وَإِذَا تَحَابَّ الرَّجُلَانِ فِي اللَّهِ اجْتَمَعَا عَلَى ذَلِكَ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ؛ كَانَ كُلُّ مِنْهُمَا جاذِبًا لِأَخْرَجِ إِلَى حُبِّ اللَّهِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: «حَقَّتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَحَابِّينَ فِيَّ وَحَقَّتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَجَالِسِينَ فِيَّ، وَحَقَّتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَبَادِلِينَ فِيَّ، وَإِنَّ لِلَّهِ عِبَادًا لَيْسُوا بِأَنْبِيَاءٍ وَلَا شُهَدَاءَ، يَغْبِطُهُمُ الْأَنْبِيَاءُ وَالشُّهَدَاءُ، بِقُرْبِهِمْ مِنْ اللَّهِ، وَهُمْ قَوْمٌ تَحَابُّوا بِرُوحِ اللَّهِ عَلَى غَيْرِ أَمْوَالٍ يَتَبَادَلُونَهَا، وَلَا أَرْحَامٍ يَتَوَاصَلُونَ بِهَا، إِنَّ لَوْجُوهُمْ لَنُورًا، وَإِنَّهُمْ لَعَلَى كَرَّاسٍ مِنْ نُورٍ، لَا يَخَافُونَ إِذَا خَافَ النَّاسُ، وَلَا يَحْزَنُونَ إِذَا حَزَنَ النَّاسُ» فَإِنَّكَ إِذَا أَحْبَبْتَ الشَّخْصَ لِلَّهِ كَانَ اللَّهُ هُوَ الْمَحْبُوبُ لِذَاتِهِ، فَكَلَّمَا تَصَوَّرْتَهُ

(١) البخاري (٦٦٠)، ومسلم (١٠٣١).

(٢) الصداقة والصديق، ص ١٤٤.

فِي قَلْبِكَ تَصَوَّرْتَ مَحْبُوبَ الْحَقِّ فَأَحْبَبْتَهُ فَازْدَادَ حُبُّكَ لِلَّهِ، كَمَا إِذَا ذَكَرْتَ النَّبِيَّ ﷺ وَالْأَنْبِيَاءَ قَبْلَهُ وَالْمُرْسَلِينَ، وَأَصْحَابَهُمُ الصَّالِحِينَ، وَتَصَوَّرْتَهُمْ فِي قَلْبِكَ، فَإِنَّ ذَلِكَ يَجْذِبُ قَلْبَكَ إِلَى مَحَبَّةِ اللَّهِ الْمُنْعَمِ عَلَيْهِمْ وَبِهِمْ، إِذَا كُنْتَ تُحِبُّهُمْ لِلَّهِ فَالْمَحْبُوبُ لِلَّهِ يَجْذِبُ إِلَى مَحَبَّةِ اللَّهِ، وَالْمُحِبُّ لِلَّهِ إِذَا أَحَبَّ شَخْصًا لِلَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَحْبُوبُهُ، فَهُوَ يُحِبُّ أَنْ يَجْذِبَهُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَكُلُّ مَنْ الْمُحِبِّ لِلَّهِ وَالْمَحْبُوبِ لِلَّهِ يَجْذِبُ إِلَى اللَّهِ. ١. هـ. (١).

ومحبتهم ومجالستهم دليلٌ على صلاح القلب وقوة الإيمان، ففي «الصحيحين» (٢) عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ، وَأَنْ يَكْرَهُ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقَدَّفَ فِي النَّارِ».

ومن الثمرات العظيمة التي يجنيها من اتخذ صديقًا صالحًا ما يلي:

١ - زيادة الإيمان، وقد ورد عن سلفنا الصالح رحمهم الله ما يؤكد ذلك، فمن ذلك: (٣)

قال عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إِنَّ الْإِيمَانَ أَنْ يُحِبَّ الرَّجُلُ الرَّجُلَ لَيْسَ بَيْنَهُمَا نَسَبٌ قَرِيبٌ، وَلَا مَالٌ أَعْطَاهُ إِيَّاهُ، لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ» (٤).

وقال عون بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ما تحابَّ رجلان في الله، إلا كان أفضلهما أشدهما حبًّا لصاحبه.

(١) مجموع الفتاوى ٦٠٩/١٠ - ٦١٠.

(٢) البخاري (١٦)، ومسلم (١٧٤).

(٣) يُنظر: حياة السلف بين القول والعمل للمؤلف: الأخوة والصحة، ص ٧٩٧، من الطبعة الثانية.

(٤) كتاب السنة لأبي بكر الخلال الحنبلي (المتوفى: ٣١١هـ): (١٢٠٥).

وقال محمد بن سوقة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: ما استفاد رجل أخًا في الله إلا رفعه الله بذلك درجة.

٢ - الدعاء له بظهر الغيب، قال كعب الأخبار رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: رَبِّ قائم مشكورٌ له، وَرَبِّ نائم مغفورٌ له، وذلك أن الرجلين يتحaban في الله، فقام أحدهما يصلي، فرضي الله صلاته ودعائه، فلم يرد عليه من دعائه شيئًا، فذكر أخاه ذلك في دعائه من الليل، فقال: يا رب أخي فلان اغفر له فغفر الله له وهو نائم.

وقال محمد بن يوسف - وذكر الإخوان -: وأين مثل الأخ الصالح؟ أهلك يقسمون ميراثك، وهو قد تفرد بجذثك^(١)، يدعوك وأنت بين أطباق الأرض.

٣ - والأنسُ بهم، واللذة بمجالستهم، فهؤلاء فقدهم غربةً، قال عليُّ بن الحسين رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: فقد الأحبَّة غربة.

نعم، فقد الصديق المخلص الناصح من أعظم الغربة.

٤ - صحبتهم من أفضل الأعمال في الدنيا، سئل محمد بن واسع رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أي عمل في الدنيا أفضل؟ قال: صحبة الأصحاب، ومحادثة الإخوان إذا اصطحبوا على البر والتقوى، فحينئذ يذهب الله بالخلاف من بينهم، فواصلوا وتواصلوا، ولا خير في صحبة الأصحاب ومحادثة الإخوان إذا كانوا عبيد بطونهم؛ لأنهم إذا كانوا كذلك ثبَّط بعضهم بعضًا عن الآخرة.

٥ - الصديق الصالح عوضٌ عن القريب القاطع، قال القاسم بن محمد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: قد جعل الله في الصديق البارَّ عوضًا من الرِّجْم المُدْبِرَة.

(١) أي: قَبْرُك.

٦ - مَنْ أَحَبَ رَجُلًا صَالِحًا فَإِنَّمَا أَحَبَ اللَّهَ، قَالَ مَكْحُولٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: مَنْ أَحَبَ رَجُلًا صَالِحًا فَإِنَّمَا أَحَبَ اللَّهَ.

وقال رجلٌ لقتادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَأَحِبُّ فِي اللَّهِ؟ قَالَ: إِنَّمَا أَحْبَبْتَ رَبَّكَ. هذه بعض فضائل الأصدقاء الصالحين المخلصين، فلا ينبغي للعاقل أن يتوانى في اتخاذ الصديق المخلص، وليبحث عنه حتى يجده.

ومن أعظم ما يستفيد من اتخاذ الأصدقاء الصالحين:

١ - أن يتعرف على عيوبه ونقصه من خلال نصحتهم له.

٢ - وقوفهم معه أوقات الشدائد.

٣ - الأُنس بهم عند نزول الكرب، أو تكدر خاطر.

٤ - الاستشارة وأخذ الرأي الصائب.

٥ - استفادة وتحصيل العلم النافع، والإعانة على ذلك.

٦ - دوام صحبتهم، والأمان من انقطاعهم غالبًا.

قال بعضهم: المودة بين الصالحين بطيء انقطاعها، سريع اتصالها، كآنية الذهب، بطيئة الانكسار، هينة الإعادة، والمودة بين الأشرار سريع انقطاعها، بعيد اتصالها، كآنية الفخار التي يكسرها أدنى شيء، ولا وصل له (١).

٧ - الأمان من الحيف والظلم، فمهما حصل من سوء تفاهم أو

فراقٍ فلن يرى منه الظلم، وقد روي عن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال لأبي مريم السُّلُولِي: وَاللَّهِ لَا أُحِبُّكَ حَتَّى تُحِبَّ الْأَرْضُ الدَّمَ. قَالَ: فَتَمَنَعْنِي لِذَلِكَ حَقًّا؟ قَالَ: لَا. قَالَ: فَلَا ضَيْرَ (٢).

هذا وهو ليس بصديق له رضي الله عنه وأرضاه.

(١) الصداقة والصديق، ص ٧٠.

(٢) عيون الأخبار ٣/ ١٧.

كَيْفِيَّةُ مَعْرِفَةِ الْحُبِّ فِي اللَّهِ مِنْ غَيْرِهِ

كثيراً ما يظنُّ الصديقُ أنه يُحبُّ صديقه لله وفي الله، وهو في الحقيقة لا يُحبه إلا لمصلحةٍ أو منفعةٍ.

وبعض الأصدقاء يظن أن من علامات محبته لصديقه في الله أنه لا يجتمع معه على معصية!، وهذا ليس دليلاً كافياً.

وهناك علاماتٌ إذا رأيت نفسك تأتي بها فاعلم أن حُبَّكَ لصديقك في ذاتِ الله:

- ١ - دعاؤك لمن أحببته بظهر الغيب.
- ٢ - أن يكون سببُ محبتك له، وقوةِ علاقتك به: استقامته وصلاحه، أو علمه النافع الذي يُتخفك به.
- ٣ - أن تُحِبَّ له ما تُحِبُّ لِنَفْسِكَ، وتكره له ما تكره لِنَفْسِكَ.
- ٤ - حرصك على نُصْحِهِ ووعظه، وترغيبه على فعل الطاعة، والتحلِّي بالأخلاق الفاضلة.
- ٥ - تنبيهه على عيوبه برفقٍ ولين.
- ٦ - ألا يكون حُبُّكَ له، واجتماعك معه على مصلحةٍ دُنْيَوِيَّةٍ، أو منفعةٍ ذاتيةٍ.

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ: وَقَدْ جُبِلَتِ النَّفُوسُ عَلَى حُبِّ مَنْ أَحْسَنَ إِلَيْهَا، لَكِنَّ هَذَا فِي الْحَقِيقَةِ إِنَّمَا هُوَ مَحَبَّةُ الْإِحْسَانِ لَا نَفْسُ الْمُحْسِنِ، وَلَوْ قُطِعَ ذَلِكَ لَأَضْمَحَلَ ذَلِكَ الْحُبُّ، وَرَبِّمَا أَعْقَبَ بُغْضًا فَإِنَّهُ

لَيْسَ لِلَّهِ وَجْهٌ، فَإِنَّ مَنْ أَحَبَّ إِنْسَانًا لِكَوْنِهِ يُعْطِيهِ فَمَا أَحَبَّ إِلَّا الْعَطَاءَ، وَمَنْ قَالَ: إِنَّهُ يُحِبُّ مَنْ يُعْطِيهِ لِلَّهِ فَهَذَا كَذِبٌ وَمَحَالٌ وَزُورٌ مِنَ الْقَوْلِ، وَكَذَلِكَ مَنْ أَحَبَّ إِنْسَانًا لِكَوْنِهِ يَنْصُرُهُ إِنَّمَا أَحَبَّ النَّصْرَ لَا النَّاصِرَ، وَهَذَا كُلُّهُ مِنْ اتِّبَاعِ مَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ فَإِنَّهُ لَمْ يُحِبَّ فِي الْحَقِيقَةِ إِلَّا مَا يَصِلُ إِلَيْهِ مِنْ جَلْبِ مَنْفَعَةٍ أَوْ دَفْعِ مَضْرَرَةٍ، فَهُوَ إِنَّمَا أَحَبَّ تِلْكَ الْمَنْفَعَةَ وَدَفَعَ الْمَضْرَرَةَ، وَهَذَا لَا يُتَابُونَ عَلَيْهِ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يَنْفَعُهُمْ، بَلْ رَبَّمَا أَدَّى ذَلِكَ إِلَى النِّفَاقِ وَالْمُدَاهَنَةِ فَكَانُوا فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْأَحْيَاءِ الَّذِينَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ، وَإِنَّمَا يَنْفَعُهُمْ فِي الْآخِرَةِ الْحُبُّ فِي اللَّهِ وَلِلَّهِ وَحْدَهُ، وَأَمَّا مَنْ يَرْجُو النَّفْعَ وَالنَّصْرَ مِنْ شَخْصٍ ثُمَّ يَزْعُمُ أَنَّهُ يُحِبُّهُ لِلَّهِ فَهَذَا مِنْ دَسَائِسِ النُّفُوسِ وَنِفَاقِ الْأَقْوَالِ، وَإِنَّمَا يَنْفَعُ الْعَبْدَ الْحُبُّ لِلَّهِ لِمَا يُحِبُّهُ اللَّهُ مِنْ خَلْقِهِ كَالْأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ لِكَوْنِ حُبِّهِمْ يُقَرِّبُ إِلَى اللَّهِ وَمَحَبَّتِهِ، وَهَؤُلَاءِ هُمُ الَّذِينَ يَسْتَحِقُّونَ مَحَبَّةَ اللَّهِ لَهُمْ^(١).



(١) مجموع الفتاوى ٦٠٩/١٠ - ٦١٠.

هل الأفضل: الإكثار أو الإقلال من الأصحاب؟

اختلف السلف والخلف في ذلك على قولين، بعضهم لا يرى الإكثار منهم أبداً، والبعض يرى عكس ذلك.

والذي يظهر أنه ليس بين القولين اختلاف، فإن الذين لا يرون الإكثار من الأصدقاء لا يقصدون الأصدقاء الأوفياء الصالحين.

بل يعنون المعارف والعلاقات العامة، التي يُتَّخَذُ منها الصديقُ الذي لم يُسْتَوْتَقْ من إخلاصه، ولم يُخْتَبَرْ دينه ووفاءه.

فهؤلاء أقلُّ ضررٍ يجنيه المُكثَرُ منهم أنهم يُرهقونه بزياراتهم، ويثقلونه بمطالبهم.

والذين يرون الإكثار منهم لا يقصدون إلا الأصدقاء الناصحين الصالحين.

والقاعدة العامة في التعامل مع هذين النوعين: ما قاله أحدُ الحكماء العقلاء: «الإخوان صنفان: إخوانُ الثقة، وإخوانُ المكاثرة؛ فأما إخوانُ الثقة فهم الكهف والجنح والأهل والمال، فإذا كنت من صاحبك على حدِّ الثقة فابذل له مالك ويدك، وصاف من صافاه، واكتم سرّه وغيبه، وأظهر منه الحسن.

واعلم أنهم أقلُّ من الكبريت الأحمر.

وأما إخوانُ المكاثرة فإنك تُصيب منهم لذتكَ، فلا تقطعن ذلك

فيهم، ولا تَطْلُبْنِ ما وراء ذلك من ضميرهم، وابذل لهم ما بذلوا لك من طلاقة الوجه وحلاوة اللسان»^(١).



(١) التذكرة الحمدونية لابن حمدون ٣٤/٢.

قصص ومواقف في الإحسان إلى الأخ والصديق

سلفنا الصالح رحمهم الله تعالى، كانوا مدرسةً عظيمةً في كلِّ المجالات، ومن بينها: حفظ حقوق الصديق، ورعايته وصيانته، فمن ذلك أنهم رحمهم الله تعالى كانوا يدعون بظهر الغيب لهم، فهذه أمُّ الدرداء تقول: كان لأبي الدرداء رضي الله عنه ستُّ وثلاثُ مئةٍ خليلٍ في الله يدعو لهم في الصلاة، فقلتُ له في ذلك، فقال: إنه ليس رجلٌ يدعو لأخيه في الغيب، إلاَّ وكَلَّ الله به ملكين يقولان: ولك بمثل. أفلا أرغبُ أنْ تدعو لي الملائكة ^(١).

وكانوا يُواسونهم وهم في أحلك الظروف، وأشد الأزمات، وربما قدّموهم على أنفسهم!!.

فهذا أحدُ الصالحين الأوفياء رحمه الله تعالى، كان قد جمع مئةَ دينار لا يملكُ سواها، أعدّها لنفسه وولده ليوم العيد الذي أظنّه، فكتب إليه صديقٌ له يطلب منه نفقةً، فما كان منه إلا أن وضعها في خِرْقَةٍ وختمها، ثم أرسل بها إليه، فما لبث هذا الصديق الذي طلب هذه المئة، حتى جاءت رسالةٌ من بعض إخوانه، يذكرُ أنه أيضًا في هذا العيد في ضائقة، فأرسل إليه الخِرْقَةَ بختمها.

فبقي الأول لا شيء عنده، فاتَّفَقَ أنه كتبَ إلى الثالث وهو صديقُه، يذكرُ حاله وحاجته، فبعثَ إليه الخِرْقَةَ بختمها فعرَّفها، فتعجَّب من ذلك

(١) السير (تهذيبه) ١/٢٧٣.

فذهب إليه وقال: خبرني ما شأنُ هذه الخِرْقَةِ؟ فأخبره الخبر، فذهباً معاً إلى الذي أرسلها، وشرحوا القصة، ثم فتحوها واقتسموها. ذكرها الذهبيُّ وصحَّحَ إسنادهَا^(١).

كانوا يحتملون الأذى لأجل سلامة أصدقائهم، فهذا إبراهيم التيمي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، كان سبب حبسه: أن الحجاج طلب إبراهيم النخعي، فجاء الذي طلبه، فقال: أريد إبراهيم، فقال إبراهيم التيمي: أنا إبراهيم، فأخذه وهو يعلم أنه إبراهيم النخعي. فلم يستحل أن يذله عليه، فجاء به الحجاج، فأمر بحبسه في الدِّيماس، ولم يكن لهم ظلٌّ من الشمس ولا كِنٌّ من البرد، وكان كل اثنين في سلسلة، فتغير إبراهيم، فجاءته أمه في الحبس، فلم تعرفه حتى كلمها، فمات في السجن^(٢).

كانوا يَصُونُونَهُمْ وَيُكْرَمُونَهُمْ، فهذا مطرّف بن الشخير رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال لبعض إخوانه: يا أبا فلان إذا كانت لك حاجةٌ فلا تُكَلِّمَنِي وَاكْتُبْهَا فِي رُفْعَةٍ فَإِنِّي أَكْرَهُ أَنْ أَرَى فِي وَجْهِكَ ذَلِكَ السُّؤَالَ^(٣).

كانوا يتلطفون في إكرامهم، فهذا مورك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ كان يتجر فيصيب المال، فلا تأتي عليه جمعة وعنده منه شيء، يلقي الأخ فيعطيه أربعمائة خمسمائة ثلاثمائة، فيقول: ضعها عندك حتى نحتاج إليها ثم يلقاه بعد ذلك فيقول: شأنك بها. فيقول الأخ: لا حاجة لي فيها. فيقول: إنا والله ما نحن بأخذها أبداً فشأنك بها. وقال: كره أن يعطيهم على وجه الصدقة^(٤).

(١) السير (تهذيبه) ٩٦٢/٢ - ٩٦٣.

(٢) صفة الصفوة ٦٣/٣.

(٣) السير (تهذيبه) ١٦٠/٣.

(٤) الحلية (تهذيبه) ٣٧٤/١.

كانوا يُواسونهم بشكلٍ عجيب، يقول أحدُهم: كنت أمشي مع الخليل بن أحمد فانقطع شسع نعلي، فخلع نعله! فقلت له: ما تصنع؟ قال: أواسيك بالحَفَاء! (١).

كانوا يتقربون إلى الله تعالى في خدمتهم، ويعرفون فضل السعي في قضاء حاجتهم.

فهذا الحسين بن علي رضي الله عنهما يأتيه رجلٌ يستعين به في حاجةٍ له، فوجده معتكفاً فاعتذر إليه، فذهب إلى الحسن رضي الله عنه فاستعان به ففضى حاجته، وقال: لقضاء حاجة أخ لي في الله أحب إلي من اعتكاف شهر. وصدق رسول الله صلى الله عليه وآله: «وَلَا أَنْ أَمْشِي مَعَ أَخٍ لِي فِي حَاجَةٍ، أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَعْتَكِفَ فِي هَذَا الْمَسْجِدِ شَهْرًا؛ يَعْنِي: مَسْجِدَ الْمَدِينَةِ». رواه الطبراني (٢) وصححه الألباني (٣).

وهذا طاووس رضي الله عنه، يقف مع صديقه حال مرضه، فاستمر به المرض حتى جاء موسمُ الحج، وكان كلَّ سنةٍ يحج، فترك الحج لأجل تمييز صديقه ومواساته (٤).

كان يحدث بينهم خلافٌ لكنه خلافٌ لا يطول، ولا يُؤثر على علاقتهم ودينهم، فهذا خالد بن الوليد وسعد بن أبي وقاص رضي الله عنهما كان بينهما كلامٌ وسوءٌ تفاهم، فذهب رجل يقف في خالد عند سعد بن أبي وقاص فقال: مه، إنَّ ما بيننا لم يبلغ ديننا (٥).

(١) الصداقة والصديق، ص ٧٢.

(٢) (١٨٦١).

(٣) سلسلة الأحاديث الصحيحة، ص ٩٠٦.

(٤) الحلية (تهذيبه) ٣٠/٢.

(٥) الحلية (تهذيبه) ٩٥/١.

وأخرج البخاري (١) وغيره، عن أَبِي الدَّرْدَاءِ رضي الله عنه قَالَ: كَانَتْ بَيْنَ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ رضي الله عنهما مُحَاوَرَةٌ؛ أَي: كَلَامٌ وَجَدَالٌ، فَأَغْضَبَ أَبُو بَكْرٍ عُمَرَ، فَانْصَرَفَ عَنْهُ عُمَرُ مُغْضَبًا، فَاتَّبَعَهُ أَبُو بَكْرٍ يَسْأَلُهُ أَنْ يَسْتَغْفِرَ لَهُ، فَلَمْ يَفْعَلْ حَتَّى أَعْلَقَ بَابَهُ فِي وَجْهِهِ.

رضي الله عن أصحاب محمد صلوات الله عليهم، وجمعنا بهم في جنات النعيم. هذان الصحابيَّان الجليلان، اللذان هما أفضل الناس بعد النبيين والمرسلين، يَحْدُثُ بينهما من الخلاف وسوء التفاهم، بل والغضب وإغلاق الباب في وجه صاحبه، كما يحدث من جميع الناس، والذي يُمَيِّزُهُم عن جميع الناس، أَنَّ هذا الخلاف الشديد لا يدوم طويلاً، ولا يُحدثُ فُرْقَةً وعداوة، بل لا يزيدُهما ذلك إلا مَحَبَّةً وألفةً وصلوة.

فهذا الصَّدِيقُ أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه، يَطْلُبُ من الفاروق أَنْ يَسْتَغْفِرَ لَهُ وَيُسَامِحَهُ، فَلَمْ يَفْعَلْ ذلك، بل وَأَعْلَقَ بَابَهُ فِي وَجْهِهِ.

فما موقفك لو واجهك أخوك أو صديقك بمثل هذا؟، ربما ستقطعه وتكرهه، ولو اعتذر إليك بعدها وتأسف: فلن تقبل عذره وأسفه إلا أَنْ يَشَاءَ اللهُ، ولو قَبِلْتَ عذره: لبقِي في قلبك مَوْجِدَةً وَحَنَقٌ عليه.

انظر ماذا حصل بينهما بعد ذلك، فحينما رأى أبو بكرٍ من عمر رضي الله عنه هذا الردّ: أصبح مهموماً حزيناً، وكان الجبال على عاتقيه، أتدرون لماذا؟ ليس لما لاقاه من جفاء عمر، بل خوفاً أَنْ يكون قد آذاه، أو بَدَرَ منه شيءٌ أساء إلى صديقه، فما كان منه إلا أَنْ أَقْبَلَ إِلَى رَسُولِ اللهِ صلوات الله عليه، أَخِذًا بِطَرْفِ ثَوْبِهِ حَتَّى أَبْدَى عَنْ رُكْبَتَيْهِ، من شِدَّةِ الهَمِّ والغَمِّ، فَقَالَ النَّبِيُّ صلوات الله عليه: «أَمَّا صَاحِبُكُمْ فَقَدْ غَامَرَ»؛ أَي: خَاصَمَ، فَجَاءَ وَسَلَّمْ ثُمَّ قَالَ:

إِنِّي كَانَ بَيْنِي وَبَيْنَ ابْنِ الْخَطَّابِ شَيْءٌ، فَأَسْرَعْتُ إِلَيْهِ ثُمَّ نَدِمْتُ، فَسَأَلْتُهُ أَنْ يَغْفِرَ لِي فَأَبَى عَلَيَّ، فَأَقْبَلْتُ إِلَيْكَ، فَقَالَ ﷺ: «يَغْفِرُ اللَّهُ لَكَ يَا أَبَا بَكْرٍ» ثلاثًا.

فما كان من عَمَرَ الفاروق، إلا أن نَدِمَ على فعله، وأحسَّ بحرقةٍ تجاه تصرفه.

فلا إله إلا الله، أين من يتكلم على صديقه أو أخيه بكلام سيءٍ، أين من يُغضب صاحبه ويكدر خاطره، ثم يمضي على وجهه كأن شيئاً لم يكن، لا يسأله مغفرةً وعفوًا، أو يستسمحه ويطيبُّ خاطره.

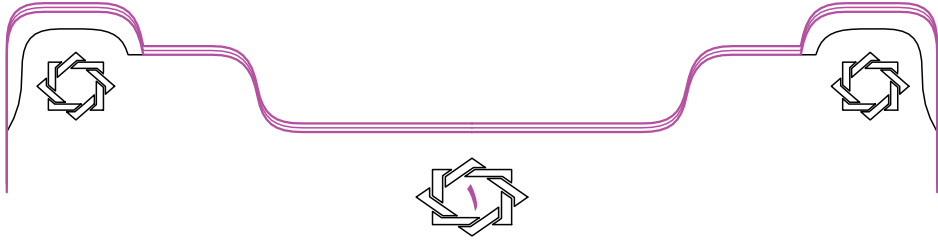
فهذا هو الكِبْرُ بعينه، يعتقد أنه إذا اعتذر أو طلبَ المُسامحة سيقبلُ قدره، وتسقطُ هيئته، وهو لا يعلم أنه بعدم اعتذاره سيقبلُ قدره عند الله تعالى، وسيمقته الناس جميعًا.

فعندما ندم عمرُ ﷺ، أتى مَنْزِلَ أَبِي بَكْرٍ مهمومًا فسأل: أئنم أبو بكرٍ؟ فقالوا: لا، فازداد همًّا وغمًّا، فما كان منه إلا أن توجه إلى النَّبِيِّ ﷺ مهمومًا حزينًا، فسلمَ عليه، فجعلَ وجهُ النَّبِيِّ ﷺ يتمعرُ؛ أي: يتغير من الغضب والحق، حتى أشفقَ أبو بكرٍ على عمرَ ﷺ، فجثا على رُكْبَتَيْهِ وَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَاللَّهِ أَنَا كُنْتُ أَظْلَمَ، وَاللَّهِ أَنَا كُنْتُ أَظْلَمَ، بدأ يُدافع ويحاجج عنه، بل ويحلف بالله أنه كان أظلم، فقال النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ بَعَثَنِي إِلَيْكُمْ فَقُلْتُمْ كَذَبْتَ، وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ صَدَقْتَ، وَوَأَسَانِي بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ، فَهَلْ أَنْتُمْ تَارِكُونَ لِي صَاحِبِي؟» قال: فَمَا أُوزِي بَعْدَهَا.

ما أعظم قلوب الصحابةِ ﷺ، وسرعةَ عفوهم ومُسامحتهم للمخطئ، مهما بلغَ وعظمَ الخطأ، فالصِّدِّيقُ قبلَ اعتذارِ الفاروقِ ﷺ، بل وجعل يُدافع ويُناصح عنه.

حقوق الصديق الواجبة والمستحبة على صديقه

لَمَّا كانت هذه مكانة الصداقة، وهذه حال السلف الصالح معها، ومن المستحيل أن يعيش أحدٌ بلا صديقٍ يُؤانسه، وخليلٍ يُصاحبه: كان لزاماً على كلِّ من اتخذ أحداً من الناس صديقاً أن يعرف الحقوق الواجبة والمستحبة عليه تجاهه، وأن يُجاهد نفسه على رعايتها وأدائها، وهي كما يلي:



الوقوف معه وقت الضيق

يجب عليك - أيها الصديق - أن تقف مع صديقك وتسانده وقت
الفاقة، بالبذل والعطاء، والكرم والسخاء.

وتركي مواساة الأخلَاءِ بالذي تنالُ يدي ظلمٍ لهم وعقوقُ
وإنِّي لأستحيي من الله أن أرى بحالِ اتِّساعِ والصديقِ مضيقُ

قف مع صديقك حال شدته، واعلم أن ما تفعله مع صديقك عند
حاجته، هو أمرٌ متحتمٌ عليك، ولك فيه أعظم الأجر عند الله تعالى، قال عليه السلام:
«ولأن أمشي مع أخ لي في حاجة، أحب إلي من أن أعتكف في هذا المسجد
شهرًا؛ يعني: مسجد المدينة». رواه الطبراني^(١) وصححه الألباني^(٢).

ومن لم يقف مع صديقه عند ضيقه وشدته، فقد صدق فيه قول
الشافعي رحمته الله:

صديقٌ ليس ينفع يومَ بؤسٍ قريبٌ من عدوٍّ في القياسِ
قف معه عند مصائبه، وواسه عند شدائده ومرضه.

وحينما يُصاب بمصيبةٍ فأظهر له حزنك، وإظهارُ الحزن في هذه
الحالة قد يكون أولى من إبداء الصبر.

(١) (٨٦١).

(٢) سلسلة الأحاديث الصحيحة، ص ٩٠٦.

قال بعضهم: جزعك في مصيبة صديقك أحسن من صبرك، وصبرك في مصيبتك أحسن من جزعك^(١).

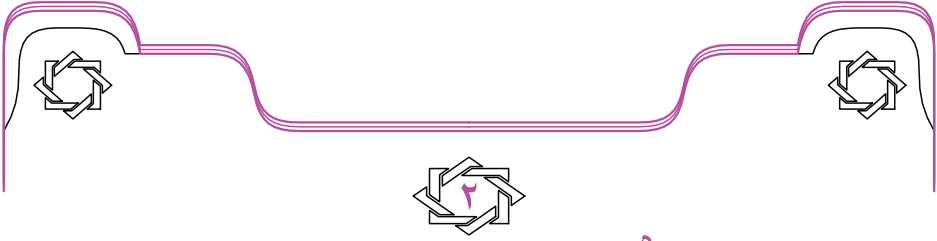
والمعنى: أنه حينما يُصابُ صديقك بمصيبة تُحزنه، فلا بدّ لك من إبداء الحزن، حتى يُحسَّ بأنك تشعر به، وإذا أُصبت أنت بمصيبة فاصبر ولا تحزن.

وهنا لطيفةٌ يذكرها الإمام ابن حزم رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فيقول: من أردتَ قضاء حاجته بعد أن سألك إياها أو أردتَ ابتداءه بقضائها، فلا تعمل له إلا ما يريد هو لا ما تريد أنت، وإلا فأمسك، فإن تعديت هذا كنت مسيئاً لا محسناً، ومستحقاً للوم منه ومن غيره لا للشكر، ومقتضياً للعداوة لا للصدقة^(٢).



(١) الصداقة والصديق، ص ٦٥.

(٢) رسائل ابن حزم، ص ٣٦٥.



عدم البخل عليه بمالك أو جاهك

إكرامُ الصديقِ الوفي بالمال والجاه يَجذبُ قلبه، ويأخذُ بلبِّه، ويتغاضى عن بعض أخطائك بسببه، ويعفو عن زلَّتِكَ لأجله.

قال أبو حاتم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أجمع أهل التجارب للدهر، وأهل الفضل في الدين، والراغبون في الجميل، على أن أفضل ما اقتنى الرجل لنفسه في الدنيا، وأجل ما يدخر لها في العقبى، هو لزوم الكرم، ومعاشره الكرام؛ لأن الكرم يحسن الذكر، ويشرف القدر.

الكريم محمود الأثر في الدنيا، مرضي العمل في العقبى، يحبُّه القريب والقاصي، ويألفه المتسخط والراضي». ١.٠ هـ.

وأما البخل على القريب أو الصديق المحتاج، مع وفرة المال فهو من أحس الصفات، وأرذل الأخلاق.

عَجِبْتُ لِبَعْضِ النَّاسِ يَبْذُلُ وُدَّهُ وَيَمْنَعُ مَا ضَمَّتْ عَلَيْهِ الْأَصَابِعُ
إِذَا أَنَا أُعْطِيتُ الْخَلِيلَ مَوَدَّتِي فَلَيْسَ لِمَالِي بَعْدَ ذَلِكَ مَانِعُ

قال يحيى بن معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: مصيبتان لم يسمع الأولون والآخرون بمثلهما في ماله عند موته، قيل: ما هما؟ قال: يُؤخذُ منه كلُّه، ويُسألُ عنه كلُّه ^(١).

(١) صفة الصفة ٤/٣٤٠.

نعم يا مَنْ تُمسك مالك عن إكرام صديقك، سيأخذ ورثتك كلَّ أموالك، وتُسال عنه يا مسكين في مالك، وبين يدي ربك وخالقك .
وهل تعلم ماذا سيبقى لك بعد موتك؟ سيبقى ذكرك السيئ، وسمعتك الرديئة .

أين أنت من أصدقائك وأقربائك، الذين ضاقت بهم السبل، وأعجزتهم الطرائق والحيل .
وصدق أبو تمام حين قال^(١) :

إِنَّ الْكِرَامَ إِذَا مَا أَيْسَرُوا ذَكَرُوا مَنْ كَانَ يَأْلِفُهُمْ فِي الْمَنْزِلِ الْخَشِنِ
إنك لم تُمسك أموالك عن الإنفاق، إلا لما وقرَ في قلبك من الشك والريب في أن الله سيُخلف لك ما أنفقت، وسيعوّضك ما بذلت، قال تعالى: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّزَاقِينَ﴾ [سبأ: ٣٩] .

وقد عدّ العلماء البخل من الكبائر، فقد ثبت أن رسول الله ﷺ قال لبني سلمة: «من سيدكم؟» قالوا: الجدُّ بن قيس على أنّا نُبخله، فقال: «وأيُّ داء أدوأ من البخل، بل سيدكم عمرو بن الجموح»^(٢) .

نعم! وأي داء أدوأ من البخل، فالبخل من أعظم الأمراض والأدواء، وأخسّ الطبائع والأخلاق .

ولو لم يكن من آثار ومفاسد البخل والشح، إلا أنّ صاحبه فقد لذة الإنفاق، وسعادة الإغداق، فإن المنفق يجد عند إنفاقه وبذله، وإعطائه وكرمه، سعادة لا توازيها سعادة، ولذة لا تساويها لذة .

(١) محاضرات الأدباء للراغب الأصفهاني ١/٣٣٥ .

(٢) رواه البخاري في الأدب المفرد (٢٩٦)، وصححه الألباني في الأدب المفرد .

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ - مُعَدِّدًا أَسْبَابَ انْشِرَاحِ الصَّدْرِ -: ومنها:
الإِحْسَانُ إِلَى الْخَلْقِ، وَنَفْعُهُمْ بِمَا يُمَكِّنُهُ مِنَ الْمَالِ وَالْجَاهِ، فَإِنَّ الْكَرِيمَ
الْمُحْسِنَ أَشْرَحَ النَّاسَ صَدْرًا، وَأَطْيَبَهُمْ نَفْسًا، وَأَنْعَمَهُمْ قَلْبًا، وَالْبَخِيلُ
الَّذِي لَيْسَ فِيهِ إِحْسَانٌ، أَضْيَقُ النَّاسِ صَدْرًا، وَأَنْكَدَهُمْ عَيْشًا، وَأَعْظَمَهُمْ
هَمًّا وَعَظْمًا.

وَقَدْ ضَرَبَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي الصَّحِيحِ، مَثَلًا لِلْبَخِيلِ وَالْمُتَّصِدِّقِ،
كَمَثَلِ رَجُلَيْنِ عَلَيْهِمَا جُنَّتَانِ مِنْ حَدِيدٍ؛ أَي: دِرْعَانِ، كَلَّمَا هَمَّ الْمُتَّصِدِّقُ
بِصَدَقَةٍ، اتَّسَعَتْ عَلَيْهِ وَانْبَسَطَتْ، وَكَلَّمَا هَمَّ الْبَخِيلُ بِالصَّدَقَةِ، لَزِمَتْ كُلُّ
حَلْقَةٍ مَكَانَهَا، وَلَمْ تَتَّسِعْ عَلَيْهِ، فَهَذَا مَثَلُ انْشِرَاحِ صَدْرِ الْمُؤْمِنِ الْمُتَّصِدِّقِ،
وَأَنْفِسَاحِ قَلْبِهِ، وَمَثَلُ ضَيْقِ صَدْرِ الْبَخِيلِ وَأَنْحِصَارِ قَلْبِهِ (١). ١.١. هـ.

وصدق القائل (٢):

المال عندك مخزونٌ لوارثه ما المالُ مالُكُ إلا حين تُنْفِقه

وصدق الآخر (٣):

يا جامع المال في الدنيا لوارثه هل أنت بالمال قبل الموت منتفع
قدّم لنفسك قبل الموت في مهل فإنَّ حَظَّكَ بعد الموت منقطع

ومن أعظم البخل: البخل على الصديق بجاهه وشفاعته.

فيا من رزقه الله مكانةً ومَنْصِبًا اعلم أن زكاتها: الشفاعة والإعانة
للمحتاجين من الأصدقاء والأقرباء، على ألا يبخرس بها حق الآخرين،
فإن الشفاعات من أعظم العبادات إذا قصد بها وجه الله ﷻ.

(١) زاد المعاد ٢/٢٤.

(٢) الأغاني ٢٣/١٣٤.

(٣) روضة العقلاء، ص ٢٣٣.

ولا يعني هذا أن يتكلف الصديق لصديقه ما لا يجده، ويتجشّم ما لا يُطيقه.

ما كَلَّفَ اللَّهُ نَفْسًا فَوْقَ طَاقَتِهَا وَلَا تَجُودُ يَدٌ إِلَّا بِمَا تَجِدُ
فبعضُ الأصدقاءِ يتكلّفُ ويشقُّ على نفسه لأجل صديقه، وربّما
استدان لأجله، وهذا لا ينبغي أبدًا، فإنه سيُخرج نفسه وصديقه أيضًا.
قال الفضيل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إنما تقاطع الناسُ بالتكلف، يزور أحدهم أخاه
فيتكلف له، فيقطعه ذلك عنه.

وكان مُحَمَّدُ بْنُ سَيْرِينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ^(١):

إِنَّكَ إِنْ كَلَفْتَنِي مَا لَمْ أَطِقْ سَاءَكَ مَا سَرَكُ مِنِّي مِنْ خَلْقٍ



(١) الحلية (تهذيبه) ١/ ٣٩٠.



مُعَامَلَتُهُ بِالاحْتِرَامِ وَالْأَدَبِ

إن الاحترام والأدب مع الناس من أعظم ما يجلب المودة والمحبة، ويزرع في القلوب السعادة والألفة، وإن الرجل بلا احترام، يكون بغيضاً ثقيلاً بين الأنام، ويرتكب بسبب ذلك الأوزار والآثام.

رأيت العزَّ في أدبٍ وعقلٍ وفي الجهل المذلَّة والهوانا كان النبي ﷺ على جلاله قدره، ورفعة منزلته: يتعامل مع الناس بمنتهى الأدب والاحترام، بل إن أدبه طال حتى اليهود وعباد الأصنام.

فهذا زيد بن سَعْنَةَ يقول: لَمْ يَبْقَ مِنْ عَلَامَاتِ النَّبُوَّةِ شَيْءٌ إِلَّا وَقَدْ عَرَفْتُهَا فِي وَجْهِ مُحَمَّدٍ ﷺ حِينَ نَظَرْتُ إِلَيْهِ، إِلَّا اثْنَيْنِ لَمْ أُخْبِرْهُمَا مِنْهُ: يَسْبِقُ حِلْمُهُ جَهْلَهُ، وَلَا يَزِيدُ شِدَّةَ الْجَهْلِ عَلَيْهِ إِلَّا حِلْمًا، قَالَ: فَكُنْتُ أَتَلَطَّفُ لَهُ لِأَنَّهُ أَخَالَطُهُ فَأَعْرِفُ حِلْمَهُ وَجَهْلَهُ، فَذَكَرَ قِصَّةَ إِفْرَاضِهِ لِلنَّبِيِّ ﷺ مَا لَا فِي تَمْرِ، قَالَ: فَلَمَّا حَلَّ الْأَجَلَ أَتَيْتُهُ فَأَخَذْتُ بِمَجَامِعِ قَمِيصِهِ وَرَدَائِهِ، وَهُوَ فِي جِنَازَةٍ مَعَ أَصْحَابِهِ، وَنَظَرْتُ إِلَيْهِ بِوَجْهِ غَلِيظٍ، وَقُلْتُ: يَا مُحَمَّدُ أَلَا تَقْضِيَنِي حَقِّي؟ فَوَاللَّهِ مَا عَلِمْتُكُمْ بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ لِمَطْلٍ قَالَ: فَنَظَرَ إِلَيَّ عُمَرُ وَعَيْنَاهُ تَدُورَانِ فِي وَجْهِهِ كَأَلْفَلِكِ الْمُسْتَدِيرِ، ثُمَّ قَالَ: يَا عَدُوَّ اللَّهِ أَتَقُولُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَا أَسْمَعُ، وَتَفْعَلُ مَا أَرَى؟ فَوَالَّذِي بَعَثَهُ بِالْحَقِّ لَوْلَا مَا أَحَازِرُ قُوَّتَهُ لَضَرَبْتُ بِسَيْفِي رَأْسَكَ، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَنْظُرُ إِلَيَّ عُمَرُ فِي سُكُونٍ وَتَوَدَّةٍ وَتَبَسُّمٍ، ثُمَّ قَالَ: أَنَا وَهُوَ كُنَّا أَحْوَجَ إِلَى غَيْرِ

هَذَا مِنْكَ يَا عُمَرُ أَنْ تَأْمُرَنِي بِحُسْنِ الْأَدَاءِ، وَتَأْمُرَهُ بِحُسْنِ التَّبَاعَةِ، أَذْهَبَ بِهِ يَا عُمَرُ فَأَقْضِيهِ حَقَّهُ وَزِدْ عِشْرِينَ صَاعًا مِنْ تَمْرٍ. فَأَسْلَمَ زَيْدُ بْنُ سُعْنَةَ رضي الله عنه، وَشَهِدَ بَقِيَّةَ الْمَشَاهِدِ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم، وَتُوِّفِيَ عَامَ تَبُوكَ رضي الله عنه (١).

أَيُّ أَدَبٍ تَعْرِفُ الْبَشْرِيَّةُ مِثْلَ هَذَا الْأَدَبِ، يَهُودِي كَافِرٌ، يَمُدُّ يَدَهُ عَلَيْهِ صلى الله عليه وسلم، وَيَتَّهَمُهُ بِأَنَّهُ هُوَ وَأَصْلُهُ مِمَّا طَلُونُ، وَأَيْنَ كَانَ هَذَا؟ فِي جَنَازَةٍ لِأَحَدِ أَصْحَابِهِ، فَلَيْسَتْ النَّفْسُ مُسْتَعْدَةً فِي الْعَادَةِ لِتَحْمِلَ مِثْلَ هَذَا، فَمَا كَانَ مِنْ عَمْرِ الْفَارُوقِ رضي الله عنه إِلَّا أَنْ رَدَّ عَلَى هَذَا الْيَهُودِي وَعَنْفَهُ، فَنَهَرَهُ النَّبِيُّ عَلَيْهِ صلى الله عليه وسلم، وَقَالَ لَهُ: «كُنَّا أَحْوَجَ إِلَيْ غَيْرِ هَذَا مِنْكَ يَا عُمَرُ أَنْ تَأْمُرَنِي بِحُسْنِ الْأَدَاءِ»، أَدَاءَ الدِّينِ الَّذِي عَلَيَّ، «وَتَأْمُرَهُ بِحُسْنِ التَّبَاعَةِ»؛ أَيُّ: بِالرَّفَقِ فِي طَلْبِ الدِّينِ، «أَذْهَبَ بِهِ يَا عُمَرُ فَأَقْضِيهِ حَقَّهُ»، بَلْ زَادَ عَلَى ذَلِكَ وَقَالَ: «وَزِدْ عِشْرِينَ صَاعًا مِنْ تَمْرٍ».

هَلْ أَخَلَّ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم بِشَيْءٍ مِنَ الْأَدَبِ مَعَ هَذَا الْيَهُودِي؟ هَلْ رَفَعَ صَوْتَهُ عَلَيْهِ؟ لَا، مَعَ أَنَّ هَذَا الْيَهُودِي يَسْتَحِقُّ ذَلِكَ وَأَشَدَّ. فَيَا أَيُّهَا الصَّدِيقُ: أَلَيْسَ صَدِيقُكَ الْمُسْلِمَ أَحَقَّ بِأَنْ تُعَامِلَهُ بِهَذَا الْأَدَبِ وَالرَّفَقِ وَاللِّينِ؟

وَلَنْ يَصْفُو لَنَا أَحَدٌ مَهْمَا قَرَبَ مِنَّا بِغَيْرِ الْإِحْتِرَامِ وَالْأَدَبِ مَعَهُ، حَتَّى أَوْلَادِنَا وَأَزْوَاجِنَا، فَكَيْفَ بِالْبَعِيدِينَ مِنَّا؟.

قَالَ ابْنُ الْقَيْمِ رحمته الله: وَأَدَبُ الْمَرْءِ: عُنْوَانُ سَعَادَتِهِ وَفَلَاحِهِ، وَقَلَّةُ أَدَبِهِ: عُنْوَانُ شَقَاوَتِهِ وَبَوَارِهِ. فَمَا اسْتَجْلَبَ خَيْرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ بِمِثْلِ

(١) رَوَاهُ الْحَاكِمُ وَصَحَّحَهُ (٢٢٣٧)، وَقَالَ فِي حَاشِيَةِ الْبَدَايَةِ وَالنِّهَايَةِ: رَوَاهُ أَبُو نَعِيمٍ، وَحَسَنَهُ الْحَافِظُ ابْنُ حَجْرٍ.

الأدب، ولا استجلب حرمانها بمثل قلة الأدب^(١). ١.١. هـ.
والأدب مع الناس من أعظم ركائز الدين، وأفضل الأعمال عند
رب العالمين.

قال عبد الله بن المبارك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: كاد الأدب يكون ثلثي الدين^(٢).
بل قال ابن القيم رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: الأدب هو الدين كله^(٣).

وقد كان السلف الصالح يتعلمون الأدب قبل تعلم العلم، ويرون
أن تعلم الأدب أهم من تعلم العلم.
فهذا الزهري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يقول: كنا نأتي العالم فما نتعلم من أدبه أحب
إلينا من علمه^(٤).

إنَّ الاحترام والأدب في أقوال وتصرفات الأصدقاء بعضهم مع
بعض ينبغي أن يكون هو الأساس والأصل، مهما قويت وتقادمت
العلاقة، ووجدت المودّة، وكثير من الناس لا يُراعي ذلك مع أصدقائه،
وإنما مع الغرباء، وهذا من العجيب!.

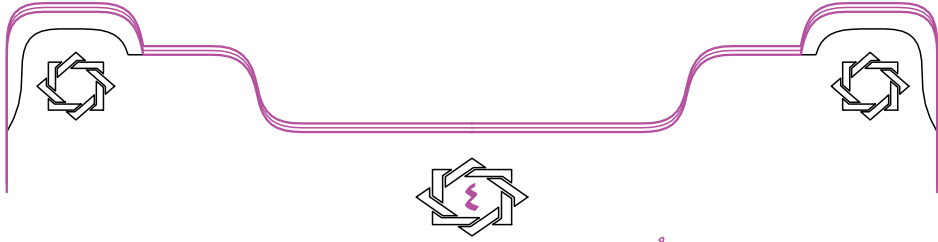


(١) مدارج السالكين ٢٠٩/٣ - ٢١٠.

(٢) صفة الصفة ٣٧٩/٤.

(٣) مدارج السالكين ٢٠٠/٣.

(٤) الحلية (تهذيبه) ٢٣/٢.



الانبساطُ معه دون إفراطٍ ولا تفريطٍ

لا ينبغي أن يتكلف الأصدقاء في الاحتشام والمروءة؛ لأنها تُذهب طعم الصحبة، ويعظم ويكبر الخطأ والزلل معها .
 قال بعضهم ^(١) : شرُّ الإخوان من يُحتشم منه ويتكلف له .
 وقال آخر: اعلم أن المودة لا تتم ما دامت الحشمة عليها مُسلطةً .
 والانبساط المُنضب طارداً للسمامة والمَلل الذي قد يعتري الصحبة،
 قيل لبعضهم: ما آفة المَلال؟ قال: كثرة الإدلالِ .
 متى يجد الإنسانُ حِلاً مُوافقاً يخففُ عنه كلفة المتحفِّظِ
 والصديق إذا لم يجد الثقة والأمان من صديقه فلن يستمتع بالصدقة
 الحقَّة .

يقول أحد الحكماء الذين لهم باعٌ وخبرةٌ في الصداقة: لا يزال
 الإخوان مسافرين في المودَّة حتى يبلغوا الثقة، فتطمئن الدار، ويُقبِلُ
 وفود التناصح، وتؤمن حبايا الضمائر، وتلقى ملابس التخلُّق، وتحلُّ عقد
 التحفظ ^(٢) .

نعم، هذه هي الصداقةُ الحقَّة، وهي التي فيها اللذة والأنس
 والفائدة .

(١) محاضرات الأدباء للراغب الأصفهاني ١/٣٣٦ .

(٢) الصداقة والصديق لأبي حيان التوحيدي، ص ٢٩ .

فلن تكون المودَّةُ والمحبة دائمة بين الأصدقاءِ حتى يبلغوا الثقة،
وعلامَةُ وجودِ الثقةِ بينهم أنهم:

- يَقْبَلُونَ التَّنَاصِحَ، فينصح بعضهم بعضًا دون خوفٍ أو قلقٍ.
 - الأَمْنُ من خبايا الضمائر، فيثقُ الصديقُ بأنَّ باطنَ صديقه مثلُ ظاهره، وأنه لن يحمل في قلبه عليه؛ لأنه لو وجد عليه لأخبره وكاشفه.
 - يُلبسون ملابسَ التَّخَلُّقِ؛ أي: يَطرَحون التَّصنُّعَ والتَّكَلُفَ.
 - يَحُلُّونَ عُقَدَ وِرباطِ التَّحْفِظِ؛ أي: التَّحَرُّزَ والاحتياطَ.
- ولا يعني هذا أن يُفِرطَ الصديقُ في الانبساطِ، فإياك وسَقَطَةَ
الاستِرْسَالِ فإنَّها لا تُسْتَقَالُ؛ لأنها تجرُّ إلى الهزلِ والإفراطِ في المِزْحِ
وارْتِكَابِ ما لا يُحْمَدُ.

ومن عجيبِ بعضِ الأصدقاءِ: أنه يُحبُّ صديقه محبةً عظيمةً، ومن
شدةِ حُبِّه أنه يُمازحه كثيرًا، وربما قسا عليه بكلامه، وأضرَّه بفعاله،
والآخر يعلم صفاء نيَّته، وصدق مودَّته، ولا يجد غضاضةً من تصرفاته!
ولو تعرَّض صاحبه للقدحِ في غيابه، أو ناله ضيمٌ أو أذى من غيره،
لأقام الدنيا وأقعدها دفاعًا عنه، ووقوفًا إلى جانبه!.

ويصدقُ فيهم قول الشاعر الجاهلي:

أُنَاجِي أَخِي فِي كُلِّ حَقٍّ وَبَاطِلٍ	وَأُرْغِمُهُ حَتَّى يَمَلَّ مَلَائِلِي ^(١)
فَإِنْ رَامَهُ بِالظُّلْمِ غَيْرِي وَجَدْتَنِي	لَهُ بِأَذَلًّا مِنْ ذَاكَ نَفْسُ مُقَاتِلِي
فَأُظْلِمُهُ جَهْدِي وَأَمْنَعُ ظُلْمَهُ	بِجَهْدٍ وَلَا أُخْلِيهِ شَحْمَةَ آكَلِ
فَإِنْ سِيَمَ حَسْفًا أَوْ هَوَانًا تَرَبَّدَتْ	قَسَائِمُ وَجْهِي وَاعْتَرَّتَنِي أَفَاكِلِي ^(٢)

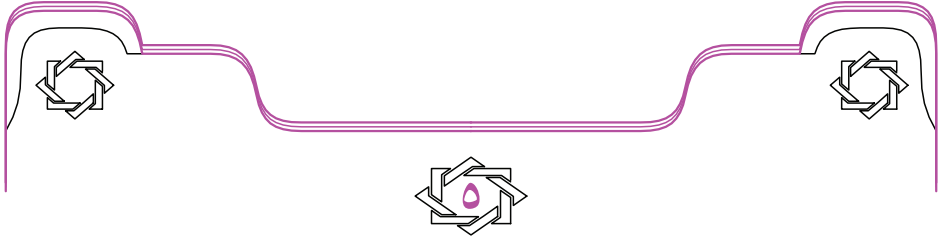
(١) لم أتوصل لمعناها.

(٢) أَفَاكِلٍ: جمع أَفْكَلٍ، وهو الرعدة والرَّعْشَةُ من بردٍ أو خوفٍ أو غضبٍ.

وَحُضَّتْ غَمَارَ الْمَوْتِ دُونَ مَنَالِهِ حِفَاظًا وَلَمْ أُسَلِّمْ أَخِي لِلْمُنَاضِلِ
يَقُولُ أَبُو حِيَانَ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ تَعْلِيْقًا عَلَيْهَا: وَهَذِهِ أَيْبَاتٌ تَصْلِحُ لِلْحِفْظِ؛ لِمَا
فِيهَا مِنْ شَرَفِ اللَّفْظِ، وَحَسَنِ الرَّوْتِقِ، وَصِحَّةِ الْمَعْنَى.
وَطَرَاؤُ الْعَرَبِ غَيْرُ طَرَاؤِ الْمُتَشَبِّهِينَ بِهِمْ ^(١).



(١) الصداقة والصديق، ص ٤٧٦، وصدق رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ، إِلَّا أَنَّ الْبَيْتَ الْأَوَّلَ وَأَوَّلَ كَلِمَتَيْنِ مِنْ
صَدْرِ الْبَيْتِ الثَّلَاثِ لَا يُؤَافِقُ عَلَيْهَا قَائِلُهَا، فَلَا يَنْبَغِي مُنَاجَاةَ الصَّدِيقِ بِالْبَاطِلِ، وَإِرْغَامَهُ
حَتَّى يَمْلَأَ، وَظَلَمَهُ.



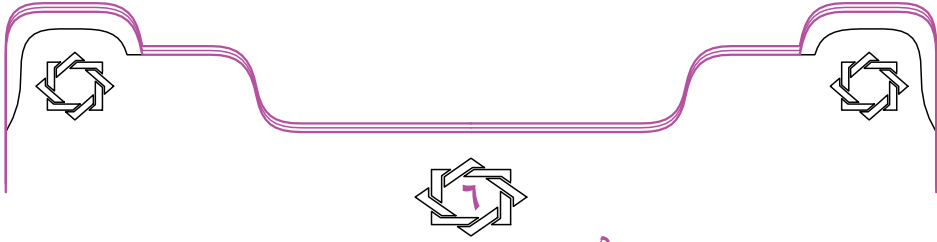
ألا تنقل إليه ما يؤلم نفسه ولا ينتفع بمعرفته

كَمْ هُمُ الَّذِينَ يَنْقُلُونَ أَخْبَارًا وَقِصَصًا مُؤَلِّمَةً لِأَصْدِقَائِهِمْ، وَلَا يَشْعُرُونَ أَنَّهُمْ بِذَلِكَ يُؤْذِنُهُمْ أَشَدَّ الْإِيذَاءِ.
وَكَذَلِكَ لَا تَكْتُمُهُ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ وَيَنْفَعُهُ.

قال يحيى بن معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لِيَكُنْ حِظُّ الْمُؤْمِنِ مِنْكَ ثَلَاثًا: إِنْ لَمْ تَنْفَعْهُ فَلَا تَضُرَّهُ، وَإِنْ لَمْ تُفْرِحْهُ فَلَا تَغْمَهُ، وَإِنْ لَمْ تَمْدَحْهُ فَلَا تَذُمَّهُ ^(١).
ما أعظم هذا المنهج، فيا أيها الصديق: إِنْ لَمْ تَنْفَعْ صَدِيقًا لَشُغْلِكَ أَوْ عَدَمِ رَغْبَتِكَ فَلَا تَضُرَّهُ، وَإِنْ لَمْ تُدْخِلْ الْفَرِحَةَ وَالسَّرُورَ عَلَيْهِ فَلَا تَغْمَهُ، وَإِنْ لَمْ تَمْدَحْهُ وَتُثْنِ عَلَيْهِ فَلَا تَذُمَّهُ. هَذَا أَقْلُ مَا تُقَدِّمُهُ لَهُ، وَهُوَ أَدْنَى دَرَجَاتِ الصُّحْبَةِ.



(١) صفة الصفة ٤/٣٤٠.



التماس الأعذار له

ما أحوجنا لهذا الحق، فيه يسلمُ الصديقُ من التَّحاملِ على صديقه، ويسلمُ الخاطِرُ من المُكدِّراتِ والمُنغصاتِ.

قال أبو قلابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: إذا بلغك عن أخيك شيءٌ تكرهه، فالتمس له العذرَ جُهدَكَ، فإن لم تجد له عذراً، فقل في نفسك: لعل لأخي عذراً لا أَعْلَمُهُ (١).

وقال عمر بن عبد العزيز رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: إذا سمعت كلمةً من مسلم فاحملها على أحسن ما تجد، حتى لا تجد محملاً (٢).

تأَنَّ ولا تعجلْ بلومك صاحباً لعلَّ له عذراً وأنت تلوم
يقول أحدُ الدعاةِ المُربينِ وفقه الله: «مِن المزعج أن يجعل الإنسان كلَّ موقفٍ، أو أزمةٍ يَمُرُّ بها: هي موطنُ اختِبارٍ لأصحابه، الذين عرفهم وجربهم مُنذُ سنواتٍ». ١. هـ.

نعم، إنَّ الصديقَ الذي جربته وعاشرته لسنواتٍ عدَّة، لا ينبغي أن تُوقَّفه عند كلِّ موقفٍ لم يُحسنِ التصرف فيه في نظرك، كأن تُرسل له رسالةً فلم يردَّ عليها، أو تُصابَ بمرضٍ فلم يَعُدَّك أو يَتَّصلُ عليك، أو تمرَّ بضائقةٍ فلم يقفْ معك كما ينبغي، لا تجعلْ هذه المواقفَ موطنَ

(١) صفة الصفة ٣/١٦٨، موسوعة ابن أبي الدنيا ٧/٥٢٥.

(٢) موسوعة ابن أبي الدنيا ٧/٥٢٥.

اختبارٍ وتقييم^(١) له، فإن فعل ما تُحِبُّ: حكمتَ بأنه صديقٌ وفيّ، وإن لم يفعل: شككتَ في صداقته وإخلاصه.

ومن يبغ الصديق بغير عيبٍ سيبقى الدهرَ ليس له صديق
وأَيُّ جوادٍ لا يكبو، وأَيُّ صارمٍ لا ينبو؟.

والصديق إذا لم يكن مع صديقه كما قال الشاعر^(٢):

كُنْ كَيْفَ شِئْتَ فَإِنَّنِي بَكَ وَاثِقٌ وَلئِنْ ذَمَّمْتُكَ إِنَّنِي لَكَ حَامِدٌ

فليس هو الصديق الوثاق من صديقه، الذي قد وثق من باطنه كما وثق من ظاهره.

توفي ابنُ ليونس بن عبيد رحمهما الله تعالى فقيل له: إن ابن عون لم يأتك. فقال: إنا إذا وثقنا بمودةٍ أخٍ لا يضرنا ألا يأتينا!^(٣).

يا له من جوابٍ سديد، وردّ رشيد، من رجلٍ فقد صاحبه في أحلك الظروف، وهو موتُ ابنه وفلذة كبد، ومع ذلك لم يحمل عليه في خاطره، ولم تنزل مودّته من قلبه، ولم تهتزّ ثقته به من نفسه.

وهذه امرأةٌ طلحة بن عبد الله الذي كان من أجود الناس في زمانه، تقول له مُتسخطةٌ من أصحابه: ما رأيت ألاماً من أصحابك، إذا أيسرت لزموك، وإذا أعسرت تركوك، فقال: هذا من كرمهم، يَعشُونَنا في حال القوة منّا عليهم، وَيُفَارِقُوننا في حال العجز منّا عنهم!^(٤).

(١) بمعنى: التثمين والتقدير.

وقد اختلف أهل اللغة حديثاً: أيهما أصح: التقويم أو التقييم؟
منهم من منع، ومنهم من أجاز، وهو اختيار مجمع اللغة العربية في القاهرة سنة ١٩٦٨ م.
وأما مصطلح تقويم فمعنا: التعديل أو التصحيح.

(٢) الزهرة لابن داود الأصبهاني، ص ٤٨.

(٣) الصداقة والصديق، ص ١٣٦.

(٤) محاضرات الأدباء للراغب الأصفهاني ١/٣٣٤.

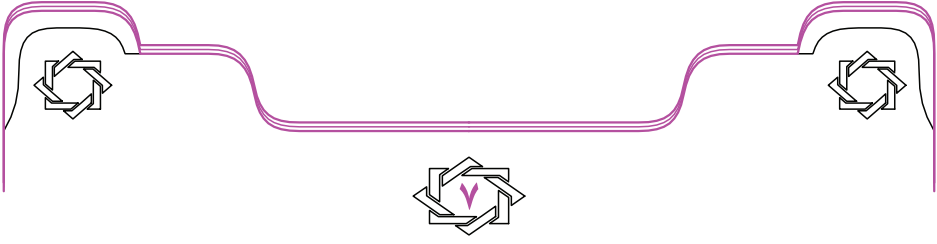
فهذا والله من أحسن الظنون، وقمة التماس الأعدار.
وقد ذكر أبو حيان رحمته الله موقفاً لأحد الأمراء العقلاء، حين دعاه السلطان في بغداد، فسار إليه ونزل بلدةً قريبةً من بغداد ليستريح بها، ويتهيأ للدخول على السلطان، فجاءه قومٌ من بغداد إلى مكانه، وتلقوه بالحفاوة والتكريم والسلام، فلما وصل بغداد أتاه قومٌ لم يتكلفوا لقاءه، ولم يخرجوا للسلام عليه في محله كما فعل الآخرون، فقال: كم من إنسان قعد لم يُغادر مجلسه حتى وافيناه فكان ألصق بقلوبنا، وأسكن في أسرارنا من قوم تكلفوا المسير إلينا، إلا أن المودة هي الأصل، والصدقة هي الركن، والثقة هي الأساس، وما عدا ذلك فمحمول عليه، ومردود إليه ^(١).

وصدق يحيى بن معاذ رحمه الله تعالى حين قال: بئس الصديق صديقٌ تحتاج معه إلى المداراة، وبئس الصديق صديقٌ تحتاج أن تقول له: أذكرني في دعائك، وبئس الصديق صديقٌ يلجئك إلى الاعتذار ^(٢).



(١) الصداقة والصديق بتصرف، ص ١٣٦ - ١٣٧.

(٢) الصداقة والصديق، ص ١٤١.



إحسان الظن به وبما يصدر منه من قول أو فعل

كم اتَّهم بعضُ الأصدقاءِ صديقه دون أن يَتَيَقَّنَ ويتأكَّد من ذلك، كم اغتاب وحكم على نِيَّاتِ آخرين، بسبب موقفٍ أو كلامٍ يحتمل أوجهًا كثيرة، ولكنه لا يأخذ إلا بأسوأ الأوجه والاحتمالات.

أين هو من قول سَلَفِنَا الصالحِ رحمهم الله: إذا بلغك عن أخيك شيءٌ تكرهه، فالتمس له العذرُ جُهدَكَ، فإن لم تجد له عذرًا فقل في نفسك: لعل لأخي عذرًا لا أعلمه^(١).

يا لها من قاعدةٍ عظيمة، ونصيحةٍ سديدة، ووالله لو طبقناها لزالَتْ أكثرُ مشاكلنا وخلافاتنا.

لا تكون عداوةً ولا قطيعةً إلا بسبب سوء الظنِّ غالبًا.

لا تحدُّثْ قطيعةً بين صديقين بسبب مزاح، إلا لظنِّه أن المازح يستخفُّ به.

ولا تكونُ قطيعةً بسبب مالٍ وتجارة، إلا لظنِّ أحدهما أن الآخر يستأثر ويستولي عليه.

لا تكونُ قطيعةً بسبب نصيحةٍ أو مُصارحة، إلا لظنِّه أن الناصح يتصيَّد أخطاه أو يتعالى عليه.

(١) صفة الصفة ٣/١٦٨، موسوعة ابن أبي الدنيا ٧/٥٢٥.

ولا غيبةً ولا نَمِيمَةً ولا تجسسَ إلا بسبب سوء الظن .
وهذا على وجه العموم والأغلب، والأمثلة كثيرةٌ لا تُحصى .
فليحذر الأصدقاء أشدَّ الحذر من سوء الظنِّ، وليتعاملوا فيما بينهم
بأحسن النيات، وليعذُر بعضهم بعضًا حينما يرى من أحدهم ما يكرهه .
واعلم - أيها الصديق - أنَّ الْمَقْصُودَ بِالظَّنِّ الْمَنْهِيٌّ عَنْهُ: أَنْ تُتَّهَمَ
أحدًا بلا بَيِّنَةٍ أو قرينةٍ مُؤَكِّدَةٍ، كمن يتهم صديقه بأنَّه فاسقٌ أو مُنافق، أو
مُتَكَبِّرٌ أو بخيلٌ أو نحو ذلك .

وهذا الظنُّ إنما هو إثمٌ وذنْبٌ على صاحبه، قال العلامةُ
الغزاليُّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: اعلم أن سوء الظن حرامٌ مثلَ سوء القول، فكما يحرم
عليك أن تُحدِّثَ غيرك بلسانك بمساوئ الغير، فليس لك أن تُحدِّثَ
نفسك وتسيءَ الظنَّ بأخيك .

والظن: عبارةٌ عمَّا تركز إليه النفس، ويميل إليه القلب .

وكما يجب عليك السكوتُ بلسانك عن مساويه، يجب عليك
السكوتُ بقلبك، وذلك بتركِ إساءةِ الظنِّ، فسوءُ الظنِّ غيبةُ القلب، وهو
منهْيٌّ عنه أيضًا، وَحَدُّهُ: أَلَّا تَحْمِلَ فِعْلَهُ عَلَى وَجْهِ فاسد، ما أمكن أن
تحمله على وجه حسن. ا.هـ. (١) .

كَمْ نَحَرَ هَذَا الْمَرَضُ الْقَتَالَ فِي قُلُوبِ الْأَقْرَبَاءِ، وَكَمْ تَقَاطَعِ بِسَبَبِهِ
الأصحاب والأصدقاء .

فالظنُّ هو من أعظم أسباب التقاطع والتدابُر، والقتلِ وإراقةِ الدماء .
فما من شرٍّ إلا والظنُّ السيِّئُ أحدُ أسبابه، وما من جريمةٍ إلا وهو
أحدُ دوافعها .

(١) إحياء علوم الدين ١٧٧/٢، ١٥٠/٣ .

بل إنَّ الظنَّ السيِّئَ يجعلُ الحسنَ قبيحًا، والحقَّ باطلاً، فإذا أساء أحدُ الظنِّ بأحد، فابْتَسَامَتْهُ له يعتبرها شتيمةً واستهزاءً، ومدحُه له يراه خوفاً أو رياءً، فكلُّ حقٍّ جاء من قِبَلِه يراه باطلاً وضلالاً .

وصدق القائل:

وَعَيْنُ السُّخْطِ تُبْصِرُ كُلَّ عَيْبٍ وَعَيْنُ أَخِي الرِّضَا عَنْ ذَاكَ تَعْمَى

وصدق الآخر:

وَعَيْنُ الرِّضَا عَنْ كُلِّ عَيْبٍ كَلِيلَةٌ وَلَكِنَّ عَيْنَ السُّخْطِ تُبْدِي الْمَسَاوِيَا

واعلم يا مَنْ تغلغل سوءُ الظنِّ في قلبك: أنَّ أسرارَ القلوب لا يعلمها إلا علَّامُ الغيوب، فليس لك أن تعتقد في غيرك سوءاً، إلا إذا انكشف لك بعيانٍ لا يحتمل تأويلاً، فعند ذلك لا تعتقد إلا ما علمته وشاهدته، فما لم تشاهده ولم تسمعه ثم وقع في قلبك، فإنما الشيطان يلقيه إليك، فيجبُ عليك تكذيبه فإنه أفسق الفساق .

والظنُّ إنَّما منشؤه التَّوَهُّمُ والتَّخمين، فكيف يبني عاقلٌ حكماً على وهمٍ واحتمالٍ؟ .

وما أكثرَ ما يطرق مسامعنا في مجالسنا وبيوتنا: فلانٌ قصد بكلامه كذا، وفلانٌ يعني بتصرفه كذا، وفلانٌ ما فعل كذا إلا رياءً ونفاقاً .

إذا حلَّ سوءُ الظنِّ في النفوس، أدى بها إلى الاتهام المتعجل، وتتبع العثرات، وتلقطُ الهفوات والزَّلَّات .

والكاسب الوحيدُ هنا هو إبليسُ نعوذُ بالله منه .

يا أخي: إنَّ علمَ ما تُكِنُّه النفوسُ وتُخفيه، والمحاسبةُ عليها هي ممَّا اختصَّ اللهُ ﷻ به، فهو يعلم السرَّ وأخفى، أما نحن، فليس لنا من إخواننا إلا ما ظهر من عملهم، وما بان من أقوالهم وأحوالهم، ولم

نُكَلِّفُ بِبِوَاطِنِ النِّيَّاتِ وَوَلِلَّهِ الْحَمْدُ، وَهَذَا مَا تَرَبَّى وَرَبَّانَا عَلَيْهِ سَلَفْنَا الصَّالِحِ رَحِمَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى، فَقَدْ رَوَى الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ^(١) عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: إِنَّ أَنَا سَا كَانُوا يُؤْخَذُونَ بِالْوَحْيِ فِي عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَإِنَّ الْوَحْيَ قَدْ انْقَطَعَ، وَإِنَّمَا نَأْخُذُكُمْ الْآنَ بِمَا ظَهَرَ لَنَا مِنْ أَعْمَالِكُمْ، فَمَنْ أَظْهَرَ لَنَا خَيْرًا أَمِنَاهُ وَقَرَّبَنَا، وَلَيْسَ إِلَيْنَا مِنْ سَرِيرَتِهِ شَيْءٌ، اللَّهُ يُحَاسِبُهُ فِي سَرِيرَتِهِ، وَمَنْ أَظْهَرَ لَنَا سُوءًا لَمْ نَأْمَنَّهُ وَلَمْ نُصَدِّقْهُ، وَإِنْ قَالَ إِنَّ سَرِيرَتَهُ حَسَنَةٌ.

وبعض الأصدقاء عنده إفراطٌ ومبالغةٌ في توجُّسه وإحساسه من صديقه، إن سمع منه كلمة لا تُعجبه حملها في خاطره، وإن مازحه أو ناصحه اعتبره تنقُّصًا في حقِّه.

فليس بين الأصدقاء حساسية^(٢) مُفرطة، ولا تفسيراتٍ وتحليلاتٍ غريبةً فيما يحدث بينهم، بل لا بدَّ أن يسود بينهم البساطة وحسنُ الظنِّ.

(١) (٢٦٤١).

(٢) الحساسية تُطلق على معانٍ منها: غَلَبَةُ الْوَجَعِ فِي الْمَشَاعِرِ، وَشِدَّةُ الْإِحْسَاسِ فِي الْخَوَاطِرِ، وَتَأْتِي بِمَعْنَى شِدَّةِ الرَّقَّةِ.

قال ابن فارس رَضِيَ اللَّهُ فِيهِ فِي مَقَائِسِ اللُّغَةِ فِي مَادَّةِ: (حَسَّ) الْحَاءُ وَالسِّينُ أَصْلَانِ: فَلَاوَلُّ غَلَبَةُ الشَّيْءِ بِقَتْلِ أَوْ غَيْرِهِ، وَالثَّانِي حِكَايَةُ صَوْتٍ عِنْدَ تَوَجُّعٍ وَشَبَهِهِ.

فَلَاوَلُّ الْحَسُّ: الْقَتْلُ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِذْ تَحْسُونَهُمْ بِإِذْنِهِ﴾ [آل عمران: ١٥٢]. وَمِنْ هَذَا الْبَابِ قَوْلُهُمْ أَحْسَسْتُ؛ أَيُّ: عَلِمْتُ بِالشَّيْءِ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿هَلْ نُحْسُ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ﴾ [مريم: ٩٨]. وَهَذَا مَحْمُولٌ عَلَى قَوْلِهِمْ قَتَلْتُ الشَّيْءَ عِلْمًا.

وَيُقَالُ لِلْمَشَاعِرِ الْخَمْسِ الْحَوَاسُ، وَهِيَ: اللَّمْسُ، وَالذَّوْقُ، وَالشَّمُّ، وَالسَّمْعُ، وَالْبَصْرُ.

وَالْأَصْلُ الثَّانِي: قَوْلُهُمْ حَسَّ، وَهِيَ كَلِمَةٌ تُقَالُ عِنْدَ التَّوَجُّعِ. وَيُقَالُ: حَسِسْتُ لَهُ فَأَنَا أَحْسُ، إِذَا رَقَّقْتُ لَهُ، كَأَنَّ قَلْبَكَ أَلِمَ شَفَقَةً عَلَيْهِ.

وَمِنْ هَذَا الْبَابِ وَلَيْسَ بَعِيدًا مِنْهُ الْحَسَاسُ، وَهُوَ سُوءُ الْخُلُقِ ١. هـ.

ولا ينبغي أن يكون بينهم التكلف، والخوف والقلق من الوقوع في الزلل والخطأ.

يقول أحد الحكماء: الصداقة التي تدور بين الرغبة والرغبة شديدة الاستحالة، والزلة فيها غير مأمونة، وكسرها غير مجبور^(١).

فينبغي أن يأخذ كل صديقٍ من صديقه الأمان على أمور لا تصح ولا تدوم الصداقة الحقة إلا بها:

١ - المصارحة والمناصحة وعدم المجاملة في توضيح العيوب والأخطاء.

٢ - الأمان والطمأنينة التامة من عدم حدوث القطيعة والغضب وتكدر المزاج حال حصول أمرٍ يكرهه أحدهم، بل يأخذه على حسن نية، ثم إذا وجد الفرصة فيما بعد مناسبة صارحه بأنه لا يرغب ذلك التصرف، ويتقبل الآخر منه ذلك.

٣ - الاحترام والأدب، وأن الصداقة لا تعني كسر هذا السياج المنيع.



(١) الصداقة والصديق لأبي حيان التوحيدي، ص ٢٩.

علاج سوء الظن

وبعد أن تعرّفنا على خطر الظنّ السيئِ وقبحه وإثمِهِ، بقي علينا أن نعرف أسباب تجنُّبه والخلاصِ منه، وهي كما يلي:

أولاً: أن يدعو - المصاب بسوء الظن - الله دائماً بالألا يجعل في قلبه غلاً للذين آمنوا، فسوء الظنّ هو أعظمُ أسباب الغل والحقد على الناس .

ثانياً: أن يُصارع مَنْ وجد في نفسه عليه، أو اعتقد فيه أمراً يُضايقه، فالْمُصارحةُ تُزيل آثار الحقد والغل، والظنّ والوهم، فكم من إنسانٍ ظنّ بأحدٍ ظناً سيئاً، فلمّا صارحه بذلك تبين له أنه واهمٌ في ظنّه، فارتاح فؤاده، ونجى من الإثم جرّاء ظنّه .

ثالثاً: أن يُحسن الظنّ بالناس، ولا يُشغَلَ نفسه بمقاصدهم ونيّاتهم، وليُفكر طويلاً قبل أن يحكم أو يتّهم، ولئن تُخطئ بحسن الظن أهونٌ من أن تُخطئ بالتسرّع بسوء الظن .

رابعاً: أن يلتمس المعاذير للناس، ويترك تتبع العورات، واقتناص الزلات .

خامساً: أن يدعو لمن ساء ظنّه به، وأن يُحسن مُعاملته معه، قال العلامة الغزاليّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وإذا خطر لك خاطر بسوءٍ على مسلم، فينبغي أن تزيد في مراعاتِهِ وتدعو له بالخير، فإن ذلك يغيظ الشيطان ويدفعه عنك، فلا يلقي إليك الخاطرَ السوءَ خوفاً من اشتغالك بالدعاء. ١.هـ.

ويجدر بنا في هذا المقام أن نتعرّض لتفسير آية من سورة الحجرات التي نهى الله تعالى فيها عن سوء الظن:

تفسير قوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا بَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ [الحجرات: ١٢]

قال الحافظ ابن كثير رحمته الله: يقول تعالى ناهياً عباده المؤمنين عن كثير من الظن، وهو التهمة والتخون للأهل والأقارب والناس في غير محلّه؛ لأن بعض ذلك يكون إثماً محضاً، فليجتنب كثيراً منه احتياطاً، وروينا عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: ولا تظن بكلمة خرجت من أخيك المسلم إلا خيراً، وأنت تجد لها في الخير محملاً ١.٠ هـ (١).

وبعد أن نهانا ربنا تبارك وتعالى عن كثير من الظنون، نهانا عن التجسس فقال: ﴿وَلَا بَجَسَّسُوا﴾؛ أي: خذوا ما ظهر من أحوال الناس، ولا تبحثوا عن بواطنهم أو أسرارهم، أو عوراتهم ومعائبهم، فإن من تتبع عورات الناس فضحه الله تعالى.

والتجسس هو من آثار الظن؛ لأنّ الظنّ يُحرّضُ عليه، حين تدعو الظان نفسه إلى التّحقّق والتأكّد ممّا ظنه.

والتجسس: هو البحث عن أسرار الناس بوسيلة خفية، وهو نوع من الكيد والتطلع على العورات.

وقد يرى المُتجسّس من المُتجسّس عليه ما يسوؤه، فتنشأ عنه العداوة والحقد، ويدخل صدره الحرج والتخوف، بعد أن كان خاطره

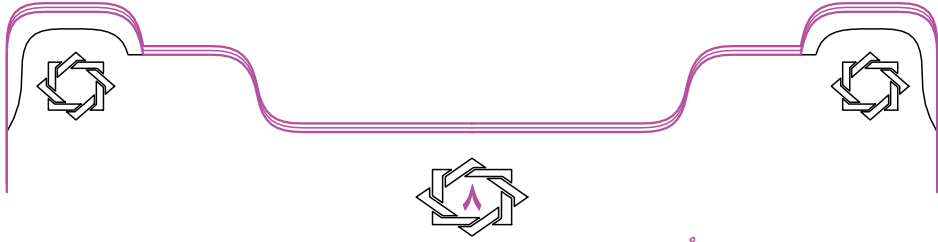
(١) تفسير القرآن العظيم، تحقيق: سامي بن محمد سلامة ٣٧٧/٧.

وضميرُه سَلِيمًا تَجَاهَهُ، وَذَلِكَ مِنْ نَكْدِ الْعَيْشِ، وَمَنْ الْمَآسِي الَّتِي يَجْنِيهَا صَاحِبُ الظُّنُونِ السَّيِّئَةِ.

وَذَلِكَ ثَلَمٌ لِلأُخُوَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ، وَهُوَ يَبْعَثُ عَلَى الْإِنْتِقَامِ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَغْتَبِ بَعْضُكُمْ بَعْضًا﴾ وَالْغَيْبَةُ مِنْ آثَارِ الظَّنِّ أَيْضًا، فَمَنْ ظَنَّ بِأَخِيهِ سُوءًا اغْتَابَهُ غَالِبًا، وَقَدَحَ فِيهِ وَفِي أَمَانَتِهِ وَخُلِقَهُ.





مُراعاةُ مشاعره في حال فرحه وترحه

أيها الصديق إذا جاء صديقك أمرٌ يُفرحه فبادر بتَهْنِئَتِهِ، وإذا حصل له أمرٌ مُحزَنٌ فبادر بتعزيته، وتخفيفِ مُصابه وألمِهِ .

ثبت في الصحيحين^(١) أنه حينما تاب الله تعالى على الثلاثة الذين خُلّفوا، وكان مُقاطعين من الصحابة جميعًا، فلَمَّا نزلت توبّتهم، أقبل كَعْبُ بْنُ عُبَيْدِ اللَّهِ مُسرِعًا للمسجد للقاء رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، قَالَ كَعْبٌ: حَتَّى دَخَلْتُ الْمَسْجِدَ فَإِذَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ جَالِسٌ حَوْلَهُ النَّاسُ، فَقَامَ إِلَيَّ طَلْحَةُ بْنُ عُبَيْدِ اللَّهِ يُهْرُؤُ حَتَّى صَافَحَنِي وَهَنَانِي، وَاللَّهِ مَا قَامَ إِلَيَّ رَجُلٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ غَيْرُهُ، قَالَ: وَلَا أَنْسَاهَا لِطَلْحَةَ! .

انظر إلى فطنة طَلْحَةَ بْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ ﷺ، وكيف استغل هذه الفرصة لِتَهْنِئَتِهِ ومُشاركته فرحته، ولك أن تتخيل هذا المشهد الذي لم ينسه كعبٌ لطلحة حينما أقبل والناس جلوس، فقام هو من بينهم يُهْرُؤُ مُسرِعًا فصَافَحَهُ وَهَنَاهُ! .

فحُقَّ له أن يقول: وَلَا أَنْسَاهَا لِطَلْحَةَ! .

إنَّ وقوفك معه في أتراحه وأفراحه له وقعٌ كبيرٌ جدًّا عليه، لا ينساه أبدًا، والعكس كذلك، خُذْ لَانِكَ لَهُ، أو تكاسلك عن مُشاركته في همومه

(١) البخاري (٤٤١٨)، ومسلم (٧١٩٢).

وأحزانه، أو سروره وأفراحه يُؤثر عليه تأثيرًا بالغًا، ويرى تخاذلك وتكاسلك أكبر علامةٍ على ضعف مودَّتكَ، ورداءةِ صُحبتِكَ.

ومن مُراعاة مشاعره في حال فرحه وترحه: عدمُ مُؤاخذته إن بدا منه ما لا ينبغي، أو تجاوز في قوله، أو تعدَّى في فعله، وليعذُّره صديقه في هذه الحالة.





زيارته دون إكثارٍ أو إقبال

ينبغي للصديق أن يزور صديقه إذا طال الفراق، أو يتصل عليه على أقل الأحوال، فإن الإبطاء في وصاله له أثر كبير في حصول الجفوة والفتور في الصحبة.

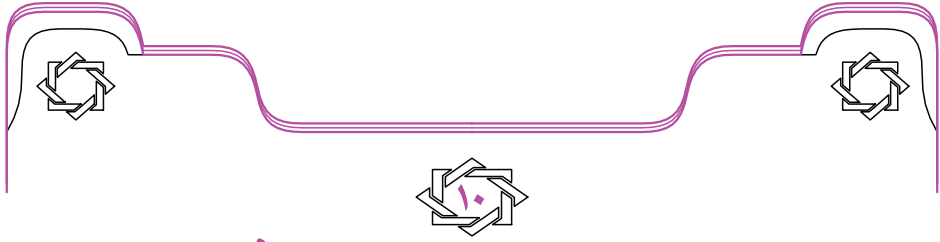
إِنَّ الْمُحِبَّ إِذَا تَقَادَمَ عَهْدُهُ نَسِيَ الْحَبِيبَ وَسَامَ صَاحِبَةَ الْقَلْبِ (١)

لكن بشرط ألا تكثر عليه من الزيارة والجلوس:

أقلل زيارتك الصديق ق يراك كالشوب استجده
 إِنَّ الصديقَ يُؤْمَلُهُ أَلَّا يَزَالَ يِرَاكَ عِنْدَهُ
 فبعضُ الأصدقاء يُثْقَلُ عَلَى صَدِيقِهِ بِكَثْرَةِ مُكَالَمَاتِهِ أَوْ زِيَارَاتِهِ، أَوْ
 بِطَوِيلِ جُلُوسِهِ أَوْ حَدِيثِهِ مَعَهُ.



(١) قَلْبِي فَلَانًا: أَبْغَضُهُ وَهَجَرَهُ. قَالَ تَعَالَى: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾ [الضحى: ٣].



ألا تكثر عليه المزاح والهزل

مَنْ أَكْثَرَ الْمَزَاحَ وَالْهَزْلَ مَعَ صَدِيقِهِ فَلَا بَدَّ أَنْ يُحْدِثَ شَرْحًا فِي الصَّدَاقَةِ وَالْمُودَّةِ.

مَازَحَ صَدِيقَكَ إِنْ أَرَادَ مِزَاحًا فَإِذَا أَبَاهُ فَلَا تَزِدْهُ جِمَاحًا
فَلَرُبَّمَا مَزَحَ الصَّدِيقُ بِمَزْحَةٍ كَانَتْ لِبَدءِ عَدَاوَةٍ مِفْتَاحًا
وَلْيُعْلَمَنَّ أَنَّ الْعَاقِلَ لَا يَتَسَبَّبُ فِي جَلْبِ أَعْدَائِهِ لَهُ، بِخَلْقِ مَشَاكِلٍ
مَعَهُمْ، أَوْ بَعْدِ مُدَارَاتِهِمْ وَالصَّبْرِ عَلَى أَذَاهُمْ.
وَالْحَكِيمُ اللَّيِّبُ: لَا يُحَوِّلُ أَصْدِقَاءَهُ أَعْدَاءً، بِفِعْلِ أَمْرٍ يُغْضِبُهُمْ، أَوْ
بَعْدِ تَحْمَلِهِمْ وَالصَّبْرِ عَلَى مَا يَصْدُرُ مِنْهُمْ.

وَالْمُؤْمِنُ الْمَوْفِقُ الْمَسْدُودُ: مَنْ يُحَوِّلُ أَعْدَاءَهُ إِلَى أَصْدِقَاءٍ، بَأَنْ يُقَابِلَ
السَّيِّئَةَ بِالْحَسَنَةِ، ﴿أَدْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ
وَلِيُّ حَمِيمٍ﴾ (٣٤) وَمَا يُلْقَلَهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَلَهَا إِلَّا ذُو حِظٍّ عَظِيمٍ
(٣٥) [فصلت: ٣٤ - ٣٥].

وَإِنَّ أَفْصَرَ طَرِيقَ لَجْلِبِ الْعَدَاوَةِ، وَتَمْزِيقِ رِبَاطِ الْأُخُوَّةِ وَالصَّدَاقَةِ:
الْإِفْرَاطُ فِي الْمَزَاحِ وَالْجِدَالِ، فَكَمْ بِسَبَبِهِمَا وَقَعَتِ الْفِرْقَةُ بَيْنَ الْأَقْرَابِ
وَالْأَصْدِقَاءِ، وَشَتَّتْ شَمْلُ الْمُتَحَابِّينَ وَالْأَخْلَاءِ، وَعَنْ طَرِيقِهِمَا حَلَّ الْحَزْنُ
وَالْوَحْشَةَ فِي الْقُلُوبِ، وَوَقَعَ النَّاسُ فِي الْآثَامِ وَالذُّنُوبِ.

أَمَّا الْمُزَاحَةُ وَالْمِرَاءُ فَدَعَّهُمَا خُلُقَانِ لَا أَرْضَاهُمَا لِصَدِيقٍ

إِنِّي بَلَوْتُهُمَا فَلَمْ أَحْمَدُهُمَا لِمُجَاوِرِ جَارًا وَلَا لِرَفِيقِ
فكم دار الحديث في المجالس، فتحول الحديث الهادي الأخوي،
إلى جدالٍ شديدٍ وتعصّبٍ كلِّ طرفٍ لرأيه، فتنتهي الجلسة والقلوبُ
مشحونةٌ حنقًا وغيضًا، والخواطرُ مننّعة.

وشأنُ المزاح كذلك، يَمْضِي الأصدقاءُ زمنًا طويلًا في صداقةٍ
ومحبّةٍ، فتبدأُ شرارةُ الفرقةِ والكراهيةِ بمزحةٍ قاسيةٍ.

ويا رَبَّ مزحٍ عادٍ وَهُوَ ضَعَائِنُ

والمراد بالمزاح المحمود: الملاطفةُ والمؤانسةُ، وتطبيبُ الخواطرِ،
وإدخالُ السرورِ، فإذا خلا المزاحُ من ذلك: فليس هو بمزاحٍ محمودٍ،
بل هو استهتارٌ واستخفافٌ بالناسِ، وإن زعم أنه يُمازحُ ويُداعبُ.

وقد كان المزاح من هدي النبي ﷺ، فقد كان يُمازح أصحابه
ويُداعبهم، حتى قالوا له: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّكَ تُدَاعِبُنَا، قَالَ: إِنِّي لَا أَقُولُ
إِلَّا حَقًّا^(١).

ولا شك أن التبسط مطلوبٌ ليطرَدَ عن النفسِ السامةَ والمملِ،
ويُريحَ الجسمَ من التعبِ والكللِ، وتَطْيِيبُ المجالسِ بالمزاحِ الخفيفِ فيه
خيرٌ كثيرٌ، ولكن بضوابطٍ وآدابٍ مِنْ أَمَمَّهَا:

أولاً: ألا يشتمل على شيءٍ من الاستهزاء بالدين.

ثانياً: أن يكون المزاحُ صدقًا وحقًا.

ثالثاً: ألا يكون فيه استهزاءٌ وغمزٌ ولمزٌ.

واعلم - أيها الصديق - أن من أخطر المزاح وأقبحه: أن تسخر من
خُلُقَةِ صديقك أو هيئته.

(١) رواه الإمام أحمد (٨٤٨١)، والترمذي (١٩٩٠)، وصححه الألباني.

فهذا المزاح يُدخل الأذى في نفسه، حيث إنَّ خِلْقَةَ الإنسان ليست بيده، وإنما هي صنعُ الله تعالى، وما أقرب هذا المزاح من أن يُبتلى هو أو أحدٌ من أبنائه بما عاب به غيره، فالبلاء مُوكَلٌّ بالمنطق.

ويجب على الصديق أن يكون أديبًا حكيماً في مزاحه، يراعي مشاعر الأصدقاء وأحوالهم، وإذا أراد أن يمازح أحداً فلا يُزَعِجْه ويُغْضِبْه، وكثيرٌ من المزاح يكون فيه ضحايا جرأء ذلك، حيث يبدأ بالتعليق على أحد الحاضرين، بأسلوبٍ تعافه النفس، وتشمئز منه الطباع البشرية، وإنما النَّارُ من مُسْتَضَعِرِ الشَّرِّ.

وبعض الناس متخصصٌ في هذه القضية، مُتَفَنِّزٌ في جعل الآخرين أضحوكةً، يهزأ ويسخرُ بهم في المجلس، ويجعلهم فكاهةً بين الناس، وهذا حرامٌ إذا لم تتيقن أنه يتقبل مثل ذلك.

وإن كان يتقبل ذلك، فأقلُّ أحوالها الكراهة؛ لأنه لا يخلو هذا التعليق من سُخْرِيَةٍ أو كلامٍ بذيءٍ، وإن تقبل ذلك ليومٍ أو يومين، فلن يتقبل ذلك على الدوام.

يا رَبِّ هزلٍ كان منه الجِدُّ ورَبِّ مزحٍ كان منه الحقد
وليعلم هؤلاء، أن الإكثار من الكلام الطيب يكون مُمِلًا أحياناً، فلو أن شخصاً كلما قابلك قال لك: إني أحبك في الله، أو أنت كريمٌ وشجاعٌ، كَمَلَّتْ من ذلك، ورأيت أنه قد يكون يستخفُّ بك، فما الظن بالتعليق الشديد على صاحبك، ولمزه وعيبه أمام الناس، وصدق الشاعر:

أفد طبعك المكدود بالجدِّ راحةً يُجِمُّ وعلله بشيءٍ من المزح
ولكن إذا أعطيتَه المزحَ فليكن بمقدارٍ ما تعطي الطعام من الملح

رابعاً: ألا يكون فيه ترويعٌ له، وما أقبح المزاح الذي فيه ترويعٌ

للناس، ورُبَّما وصل الأمر إلى إلحاق الأذى والرعب، وكلُّ هذا باسم المزاح مع الصديق.

وكم أحدثَ هذا المزاحُ من آثارٍ سيِّئةٍ على النفوس، وكم تفرَّق الأصدقاءُ والأصدقاءُ بسببه.

وقد قالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يُرَوِّعَ مُسْلِمًا»^(١).

وقد وصل المزاحُ ببعضهم، أن ألقى صديقه في بركة ماء، وهو لا يحسن السباحة، وبعضهم يُطارده بالسيارة، أو يُفاجئه بها على حين غفلة.

وكم هي المآسي والفجائع التي حصلت، بسبب مثل هذا المزاح القبيح المُستهجن، الذي يكشفُ عن فساد ذائقة ذلك المازح، وسفاهة عقله والله المستعان.

خامساً: معرفة مقدار الأصدقاء، فالبعضُ من الناس يمزح مع كلِّ أحدٍ دون اعتبار، فالأصدقاءُ تختلفُ طباعُ ومكانةُ كلِّ واحدٍ عن الآخر، ويجب أيضاً معرفة شخصية المقابل، فيمزحُ معه على حسب ما يُناسبُ طباعه ومكانته وتقبُّله.

سادساً: ألا يكون المزاحُ كثيراً، فإن بعض الناس يغلب عليهم هذا الأمر، ويصبح ديدناً لهم، وهذا عكس الجِدِّ الذي هو من سمات المؤمنين، والمزاحُ إنما هو فسحةٌ ورخصةٌ، للترويح عن النفس وتنشيطها، أما أن تكون سمةً بارزةً للإنسان، فهذا لا يليق أبداً.

سابعاً: اختيار الأوقات المناسبة للمزاح، كأن يكون في رحلة برية، أو عند ملاقة صديق، فلا بأس بالتبسط معه بطرفةٍ لطيفة، أو مزحةٍ

(١) رواه الإمام أحمد (٢٣٠٦٤).

خفيفة، لتدخل السرور والراحة على قلبه، فالمزح في غير وقته، كالمزح وقت الجد، أو حين لا يكون الصديق مُتهيئاً له: يكون مُضراً وجالباً للعداوة.

ثامناً: ألا يكون فيه فحش وبذاءة، فبعض النكت عبارة عن قلة حياء، وقلة أدب ومروءة، يأتي أحدهم بطرفة فيها تصريح بالعورات المغلظة، أو بقضاء الوطر ونحو ذلك من الكلام الغير مُحشَّم، والله تعالى لا يحب الجهر بالسوء من القول، ويكره كل فاحشٍ بذيء.

وأخيراً، فلا بد أن يُعلم أنَّ المزاح قنطرة^(١) قصيرة إلى البغي والإثم، فمتى أكثر الإنسان من الهزل، جرّه ذلك إلى الوقوع في أعراض الناس، والعبث بمشاعرهم، والاستهتار بكثيرٍ من الأمور المُصانة، وإن كثرة المزاح تفقده أنسه وبهجته، وتنقله إلى حدّ السماجة المُستثقلة، وربما الوقاحة المُستنكرة.

وستبقى الفضيلة وسطاً بين رذيلتين.

وَلَا تَغْلُ فِي شَيْءٍ مِنَ الْأَمْرِ وَاقْتَصِدْ كَلَّا طَرَفِي قَصْدِ الْأُمُورِ ذَمِيمٌ

فلا ينبغي الجهامة والقطوب، والتوافر الثقيل، التي تجعل صاحبها ثقيلًا بغيضًا، لا يأنس أحدٌ بصحبته، ولا يطمع أحدٌ بمجالسته.

ولا ينبغي كذلك: السماجة والمزاح العابث، فيكون صاحبه منزوع الهيبة، مسلوب الكرامة، بل الصواب أن نتحلّى بالسماحة والرزانة، وحسن الخلق والبشاشة.

ومِمَّا ينبغي على الصديق أن يجتنبه في مزاحه مع صديقه: المزاح معه عند الغرباء، فالصديق يقبلُ مزاحك ويرضى به، لكن عند الغرباء

(١) القنطرة: جسر مُتَّقَوِّسٌ مَبْنِيٌّ فَوْقَ النَّهْرِ يُعْبَرُ عَلَيْهِ.

والآخرين قد يُصابُ بالحرص، وقد تخرج منك كلمةٌ على حين غفلةٍ تُكدرُ
خاطره، ويعتبرها واضحةً لقدره، مُنْقِصَةً من مكانته.

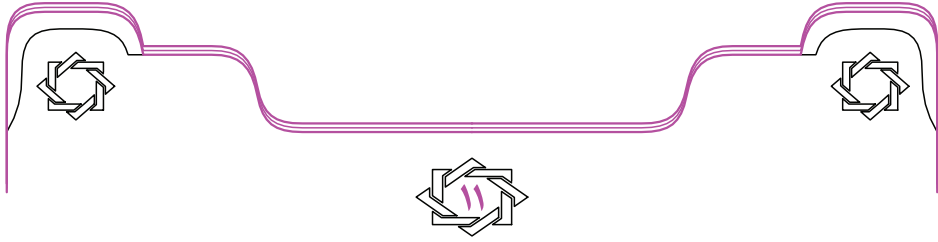
زنِ القولَ من قبل الكلامِ فإنما يدلُّ على قدر العقول التكلُّمُ
والأولى أن تُمسك عن المزاح معه حتى تتأكَّد من تقبُّله للمزاح،
ويكون بقدرٍ واحتراز.

ولئن ندمتُ على سكوتِ مرةٍ فلقد ندمتُ على الكلامِ مرارًا
ومن عجيب بعض الأصدقاء: أنه لا يحتمل من صديقه المزاح،
وهو يمزح معه، وربما زاد واعتدى في مزاحه، وكأن المزح حلالٌ عليه
حرامٌ على غيره.

فهو يُسمِعنا، ولا يُريد أن يسمع منا؟

ومنهم مَنْ سَمِعنا ما لَدِيه وَيَغْضَبُ حِينَ يَسْمَعُ ما لَدِينا
فإنْ يَكُ فَعْلُهُمْ سَمِجًا وَفِعْلِي قَبِيحًا مِثْلُه فَقدْ اسْتَوِينا





ألا يُعَاتِبُهُ عَلَى أَمْرٍ يَتَوَجَّسُ مِنْهُ دُونَ غَيْرِهِ

بعض الأصدقاء يتحسَّسُ من كلمةٍ أو عبارةٍ معيَّنة، أو فعلٍ أو سلوكٍ معيَّن، هو ليس في نظر الآخرين بخاطيءٍ ولا سيِّء، ولكنه هو بنفسه يراه خطأ فادحًا، وذنباً قبيحًا، فيُفاجئُ صديقه بعتابه، ولومه على قوله أو فعله.

وهذه مشكلةٌ تحدث كثيرًا، فكيف بالصديق أن يعلم أن صاحبه لا يُحب مثل ذلك؟، وهل كلُّما أراد أن يقول أو يفعل شيئًا استشار صاحبه عنه؟.

أحدُهم يُذَكِّرُ صاحبه بأمرٍ اتَّفقا عليه، وماتل صاحبه في تنفيذه، فأرسل له قائلاً: لا تنسَ أنك التزمتَ ووافقتَ على شروطنا، والمؤمنون على شروطهم، فغضب من هذه العبارة، وقال: أزعجتني عبارتك هذه، ولو قلتَ أيَّ شيءٍ غيرَها لكان أهون!!.

فقال صاحبه: هل العبارة في ذاتها خطأً عند جميع العقلاء؟ أم أنك وحدك تكرهها؟ فاستحيا وقال: بل أنا لوحدي أكرهها!، فقال: وما يُدريني أنها تُزعجك؟ فرضي واعتذر.

وآخرٌ يستقرضُ من صاحبه مبلغًا، وتعهَّد عليه ألا يُكلِّف نفسه أن يستقرض من أحد، فلمَّا لم يجد عنده المبلغ الذي طلبَ، اتَّصل بأحد رجال الأعمال، فوافق على إقراضِ صاحبه قرضًا حسنًا، فأخبر صديقه بفرحٍ بما فعله.

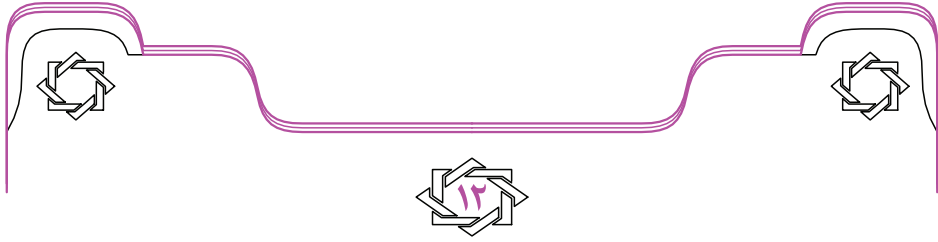
فَعَاتِبَهُ عِتَابًا شَدِيدًا، وَأَنْبَهُ عَلَى فِعْلِهِ! .

وصديقه ما أراد إلا الخير والإحسان له، فقد اعتصر قلبه حين لم يجد المبلغ بين يديه، فهل يقف مكتوف اليدين مع صديقه الحبيب؟ .
وإنِّي لأستحيي من الله أن أرى بحال اتّساع والصديق مضيقُ
فهل من أحسن - ولو أخطأ في الوسيلة - يُعَاتِبُ وَيُعْتَفُّ؟؟ .
وقد تقول: هو تضايق حينما عَلِمَ أَحَدٌ بِحَاجَتِهِ، فلماذا يُخبر غيره بذلك؟ .

أقول: وما يُدري صاحبه بما تُكِنُّه نفسه، وما عليه طبعه، فهو ظن الناس مثله لا يتخرجون من ذلك .
وأمرٌ آخر، أليس الأولى أن يبتسم في وجهه، وَيُطَيِّبُ خَاطِرَهُ، وَيُخْبِرُهُ بِأَنَّ الْأُولَى أَلَا يَفْعَلُ مَا فَعَلَ؟، أليس ذلك أولى من غضبه وعتابه؟ .

هَبْنِي أَسَأْتُ كَمَا زَعَمْتَ فَأَيْنَ عَاقِبَةُ الْأَخْوَةِ
وَإِذَا أَسَأْتَ كَمَا أَسَأْتُ فَأَيْنَ فَضْلُكَ وَالْمَرْوَةِ





ألا يُبالغ في المحبة والرغبة، والكرهة والنفرة

ما أكثر مَنْ إذا أَحَبَّ شيئًا بالغ في محبَّته، وإذا أَبغضه بالغ في بُغضه، وهذا الحب أو البغض قد يكون لشخصٍ أو عملٍ أو غير ذلك.

أعرف شخصًا فيه هذا الطبع، فكنت كثيرًا ما أحذره منه، وأنصحه في التوسط والاعتدال في حبه وبغضه، لكنه يأبى أن يُغير طبعه، فأحَبَّ صديقًا له محبةً كبيرة، فأصبح يأخذه كلَّ يوم هنا وهناك، حتى أدخله شريكًا له في تجارة له، فنصحته في عدم المُبالغة في هذه الصحبة، والإكثار عليه في الذهاب والإياب.

فما هي إلا أيامٌ حتى عافه وملَّه، وأصبحت بينهما نفرةٌ وقطيعة. وهكذا كانت طريقته مع بعض أصحابه، فبعضهم قاطعه وكرهه، وبعضهم هجره وتركه.

بل وفعل كذلك في عمله، حيث دخل في مشروعٍ درَّ عليه مألًا كثيرًا، فبالغ في تفرُّغ وقته لأجله، فما هي إلا أشهرٌ حتى ترك عمله، وحصلت خلافاتٌ كثيرةٌ مع الأطراف المُتعاقدة معه.

كم جرَّ عليه هذا الحبُّ والبغض المُفراط من الشقاء والأذى. وقد صدق القائل: لا يُفْرِطُ العاقلُ في محبة الصديق، ولا يتجاوز في عداوة العدو، فإنه لا يدري متى تنتقلُ صداقةُ الصديق عداوة، ولا متى تنتقلُ عداوةُ العدو صداقة.

ومن جيد ما قيل في هذا المعنى قول بعضهم: لا تكن مكثراً ثم تكون مُقلِّلاً، فيُعرف سَرَفك في الإكثار وجفاؤك في الإقلال^(١).

وعن عليٍّ رضي الله عنه قال: أَحَبُّ حَبِيبِكَ هَوْنًا مَا عَسَى أَنْ يَكُونَ بَغِيضَكَ يَوْمًا مَا، وَأَبْغَضُ بَغِيضِكَ هَوْنًا مَا عَسَى أَنْ يَكُونَ حَبِيبَكَ يَوْمًا مَا^(٢).

وعن عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رضي الله عنه قَالَ: لَا يَكُنْ حُبُّكَ كَلْفًا وَلَا بُغْضُكَ تَلْفًا. فقال زيد بن أسلم: كَيْفَ ذَاكَ؟ قَالَ: إِذَا أَحْبَبْتَ كَلِفْتَ كَلْفَ الصَّبِيِّ، وَإِذَا أَبْغَضْتَ أَحْبَبْتَ لِمُصَاحِبِكَ التَّلْفَ^(٣).

وقال بعضُ الحكماء^(٤): إِذَا أَقْبَلَ عَلَيْكَ مَقْبَلٌ بُوَدَّهِ فَسِرْكَ أَلَا يُدْبِرُ عَنْكَ، فَلَا تُكْثِرِ الْإِقْبَالَ عَلَيْهِ، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ مِنْ شَأْنِهِ التَّبَاعُدُ مِمَّنْ قَرِبَ مِنْهُ، وَالذُّنُوبُ مِمَّنْ يَتَّبَعِدُ مِنْهُ.

وقيل: مَنْ أَحْبَبْتَ فَلَا تَأْمَنَهُ، وَمَنْ أَبْغَضْتَ فَلَا تَهْجُرْهُ.

فَأَمْسِكْ نَفْسَكَ إِذَا رَأَيْتَ مِنْهَا رَغْبَةً وَحُبًّا لِأَحَدِ الْأَصْدِقَاءِ مَهْمَا كَانَ؛ لِأَنَّكَ لَا تَدْرِي لَعَلَّ الَّذِي أَحْبَبْتَهُ يَكُونُ يَوْمًا مُصَدِّرَ قَلْقٍ وَإِزْعَاجٍ عَلَيْكَ، فَتَأْتِيكَ حَسْرَةٌ شَدِيدَةٌ عَلَى الْوَقْتِ وَالْحُبِّ الَّذِي أَعْطَيْتَهُ إِيَّاهُ.

وَأَمْسِكْهَا إِذَا رَأَيْتَ مِنْهَا كَرَهًا وَبُغْضًا لِأَحَدِهِمْ؛ لِأَنَّكَ لَا تَدْرِي لَعَلَّ الَّذِي أَبْغَضْتَهُ يَكُونُ يَوْمًا زَمِيلًا لَكَ فِي عَمَلٍ، أَوْ تَحْتَاجُ إِلَيْهِ.

يقول ابن الجوزي رحمته الله: مِمَّا أَفَادَتْنِي تَجَارِبُ الزَّمَانِ، أَنَّهُ لَا يَنْبَغِي

(١) جمهرة الأمثال لأبي هلال العسكري ١٨٤/٢.

(٢) رواه البخاري في الأدب المفرد (١٣٢١)، وحسن إسناده الألباني في تعليقه على الأدب.

(٣) رواه البخاري في الأدب المفرد (١٣٢٢)، وصحح إسناده الألباني في تعليقه على الأدب.

(٤) محاضرات الأدباء للراغب الأصفهاني ٣٣٧/١.

لأحدٍ أن يُظاھر بالعداوة أحدًا ما استطاع؛ فإنه ربما يحتاج إليه.
وإن الإنسان ربما لا يظن الحاجة إلى مثله يومًا ما، كما لا يحتاج
إلى عُويْدٍ منبوذ، لا يُلْتَفَت إليه؛ لكن كم من مُحْتَقَرٍ أُحْتِجَجَ إليه! فإذا لم
تقع الحاجة إلى ذلك الشخص في جلب نفع، وقعت الحاجة في دفع
ضر.

ولقد احتجت في عمري إلى ملاطفة أقوام، ما خطر لي قَطُّ وقوع
الحاجة إلى التلطف بهم. ١.٠ هـ^(١).
ومن أعظم ما يجده من أحب صديقه حبًّا مُبالِغًا فيه: الحسرة
والأسى حين يرى من صديقه جفوة، أو إعراضًا أو هجرانًا.



(١) صيد الخاطر، ص ٢٣٠.

تجربة ابن حزم ونصيحته في ذلك

يقول ابن حزم رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أن بعض من خالصني المودة وأصفاني إياها غاية الصفاء في حال الشدة والرخاء والسعة والضيق والغضب والرضى، تغير علي أقبح تغير بعد اثني عشر عامًا متصلة في غاية الصفاء، ولسبب لطيف جدًا ما قَدَرْتُ قط أنه يؤثر مثله في أحد من الناس، وما صلح لي بعدها، ولقد أهمني ذلك سنين كثيرة همًّا شديدًا.

فلا تستعجل مع هذا سوء المعاملة فتلحق بذوي الشرارة من الناس وأهل الخب^(١) منهم.

ولكن ها هنا طريق وعرة المسلك شاقة المتكلف... يُحْرِزُ صاحبها صفاء نيات ذوي النفوس السليمة والعقود الصحيحة البراء من المكر والخديعة، ويحوي فضائل الأبرار وسجايا الفضلاء، ويحصل مع ذلك على سلامة الدهاة وتخلص الخبثاء ذوي النكراء والدهاء، وهي أن تكتم سرَّ كلِّ من وثق بك، وألا تفشي إلى أحدٍ من إخوانك ولا من غيرهم من سرِّك ما يمكنك طيُّه بوجه ما من الوجوه وإن كان أخص الناس بك، وأن تفي لجميع من ائتمنك، ولا تأتمن أحدًا على شيء من أمرك تشفق عليه إلا عن ضرورة لا بد منها، فارتد حينئذ واجتهد وعلى الله تعالى الكفاية. وابدل فضل مالك وجاهك لمن سألك أو لم

(١) الخبُّ: الخداع، والخبُّ من الناس: الخداع الماكر.

يسألك، ولكل من احتاج إليك وأمكنك نفعه لم يعتمدك بالرغبة. ولا تُشعر نفسك انتظار مقارضة على ذلك من غير ربك وَرَبِّكَ. وعاملٌ كلُّ أحدٍ في الأُنس أجمل معاملة وأضمر السلو عنه إن حلت بعض الآفات التي تأتي مع مرور الأيام والليالي تعش سالمًا مستريحًا^(١).



(١) رسائل ابن حزم، ص ٣٥٩ - ٣٦٠، مع بعض التصرف.



عدم التكلّف في كتمان المشاعر أو إبدائها

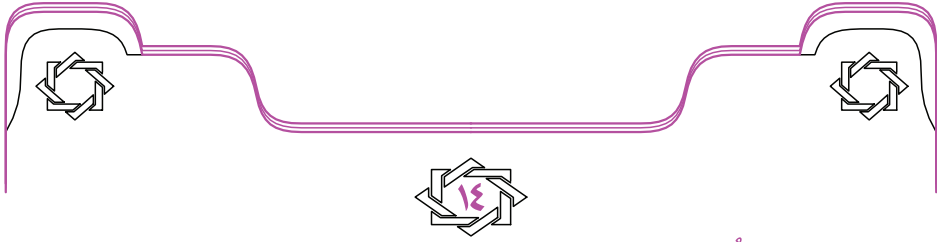
كم تجتاح أحدنا أحاسيس ومشاعرٌ جيّاشةٌ، تجاه أحدٍ من الناس أسدى لنا معروفًا، أو رأينا منه ما يُعجبنا ويُبهِجنا، فتثور في القلب عبارات الثناء والمدح، فنكتمها ونبخل بها، حياءً أو عدمَ جرأةٍ في إبدائها، والأدهى من ذلك إذا كان خوفًا أن يَغتر من هذا المدح، أو يُصاب بالإعجاب والغرور! .

كم أدى هذا التأويل والتكلّف الفاسد إلى تثبيط الهمم، والجفاء بين الناس، وعدم الاستمرارية في الإبداع والعمل؛ نتيجةً لفقد رافدٍ مُهمّ، وهو التشجيع والثناء الصادق.

ومن أخص من ينبغي لنا أن نُظهر لهم مشاعرنا الجميلة تجاههم: الأصدقاء الأوفياء، فهم يستحقُّونها، وهي حقٌّ من حقوقهم، مهما تقادمت وقويت الصداقة.

لكن التكلّف في إبداء وإظهار المشاعر لا ينبغي، فخير الأمور أوسطها، فإنّ ذلك يُؤدي إلى عدم التلذذ بسماعها، وعدم الحفاوة والمبالاة بها، حيث أصبحت ديدناً وعادةً لقائلها.





الهدية بشرط عدم المبالغة والتكلف فيها

لا شك أنَّ الهدية من أعظم أسباب تقوية المحبة والموَدَّة، وزيادة التقارب والألفة، ولذلك قال رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «تَهَادُوا تَحَابُّوا»^(١).

ما أجمل أن تُهدي - أيها الصديق - لصديقك هديةً حين يقدم من سفره، أو يُشفى من مرضه، أو حين زواجه.

قال بعضهم: الهدية تردُّ بلاء الدنيا، والصدقة تردُّ بلاء الآخرة^(٢).

إن الهدية حُلُوَّةٌ كالسحرِ تَجْتَلِبُ القلوبا
تُدني البعيد من الهوى حتى تُصَيِّرَهُ قَرِيبًا

ولكن ما انقطعَت هذه السُّنَّة الطيبة، إلا حينما تكلف الأصدقاء وبالغوا فيها.

فبعض الأصدقاء يُحبُّ أن يُهدي لأحدٍ أسدى له معروفًا، أو يُكافئه على بذله وجُهدِه، فيحترار في الهدية التي سيقدِّمها له، فتمضي الأيام وهو يُفكر في نوع الهدية، أو ينتظر حتى يجمع بعض المال الذي يشتري بها الهدية، فربَّما قلَّ حماسُه ونشاطُه مع مرور الأيام فيتركها، ولو أنه علم أن الهدية للتعبير عن حبه وتقديره له، لا أنها ثمنٌ لقدره ومنزلته لَمَّا تكلف هذا التكلف.

(١) رواه البخاري في الأدب المفرد (٤٦٣/٥٩٤)، وحسنه الألباني.

(٢) التذكرة الحمدونية ٤٢/٢.

ومن مفسد التكلفة في الهدية: أنها تشق على المُهدي والمُهدى إليه، فأما المُهدي فواضح.

وأما المُهدى إليه فإنه إذا أُرِدَ أن يُهدي له بعد ذلك فلن يردّ بأقل من هدية صاحبه، وربما كان قليل المال.

وذلك كان ﷺ يؤكد هذا المعنى، وهو عدمُ التكلفة في الهدية.

فَقَالَ: «لَوْ أَهْدَيْتَ إِلَيَّ ذِرَاعًا أَوْ كُرَاعًا لَقَبِلْتُ». رواه البخاري (١).

بل ويأمر بإهداء اليسير غير المُتكلّف، ليعتاد الناس على الهدية ويستسهلونها.

فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «يَا نِسَاءَ الْمُسْلِمَاتِ، لَا تَحْقِرَنَّ جَارَةً لِحَارَتِهَا، وَلَوْ فَرَسِينَ شَاةً». متفق عليه (٢).

قال الحافظ رحمه الله: (فِرْسَيْنِ) هُوَ عَظْمٌ قَلِيلٌ اللَّحْمِ.

أَي: لَا تَمْنَعِ جَارَةً مِنَ الْهَدِيَّةِ لِحَارَتِهَا الْمَوْجُودِ عِنْدَهَا لِاسْتِقْلَالِهِ، بَلْ يَنْبَغِي أَنْ تَجُودَ لَهَا بِمَا تَيْسَّرُ وَإِنْ كَانَ قَلِيلًا فَهُوَ خَيْرٌ مِنَ الْعَدَمِ، وَذَكَرَ الْفَرَسِينَ عَلَى سَبِيلِ الْمُبَالَغَةِ.

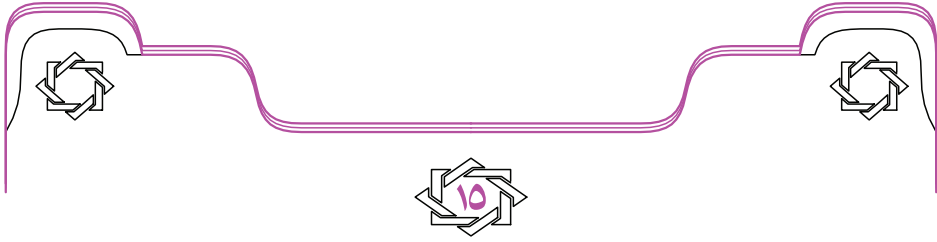
وَفِي الْحَدِيثِ الْحَضُّ عَلَى التَّهَادِي وَلَوْ بِالْيَسِيرِ؛ لِأَنَّ الْكَثِيرَ قَدْ لَا يَتَيْسَّرُ كُلَّ وَقْتٍ، وَإِذَا تَوَاصَلَ الْيَسِيرَ صَارَ كَثِيرًا. . وَفِيهِ إِسْقَاطُ التَّكْلُفِ ١. هـ (٣).



(١) (٢٥٦٨).

(٢) البخاري (٢٥٦٦)، ومسلم (١٠٣٠).

(٣) فتح الباري ٥/٢٤٥.



نقده بأسلوب لطيف

النقد في الأصل بغيضٌ إلى النفوس، ثقيلٌ يشقُّ سماعه وقبوله، فإذا نقدتَ صديقك دون مُستندٍ صحيحٍ لنقدك، أو نقدته بأسلوبٍ جافٍّ أو أمام الآخرين، أو أكثرت من نقده، فسيزدادُ ثِقْلُهُ، ويصعبُ تحمُّله، وتُعتبر في نظر من نقدته مُعتدياً مُخطئاً.

وَأنت قد تكون في قرارة نفسك ناصحاً مُشفقاً، لكنك لم تكن بذلك مُصيباً مُوفقاً؛ لأنك لم تأت النقد من بابه، ولم تلتزم بضوابطه وأدابه.

فالنقدُ ثقيلٌ وشاقٌّ بحدِّ ذاته، فلا ينبغي للعاقل أن يزيده ثِقْلاً بخشونة أسلُوبه، وفضاضة ألفاظه.

فإذا أراد الصديق أن ينقُد صديقه أو غيره على سلوكٍ أو تصرفٍ خاطئٍ تجاهه أو تجاه غيره، فلا بد أن يلتزم بأداب النقد البناء، وهي:

١ - السرية التامة حال نقدك، وألا تُخبر أحداً بعد ذلك بنقدك له، فربما وصله الخبر فيتخذَ موقفاً عدائياً معك.

٢ - أن تُقدِّم بين يدي نقدك كلاماً جميلاً، وثناءً صحيحاً.

فهذا ربُّنا جلّ جلاله، يقول مُخاطباً اليهودَ الظالمين، المَغضُوبَ عليهم والمُكذِبين، بعد أن عدَّد ما منَّ عليهم من النعم والفضائل: ﴿يَبْنَى إِسْرَءِيلَ أَذْكَرُوا نِعْمَتِي الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى

الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾ [البقرة: ٤٧] تأمل كيف ناداهم بِاسْمِ آبِيهِمْ، الَّذِي هُوَ أَضَلُّ عَزْهِمْ وَسُؤْدُدِهِمْ، وَمَنْشَأُ تَفْضِيلِهِمْ، وَأَسْنَدُ النِّعْمَةِ إِلَيْهِمْ جَمِيعًا لَا إِلَيْهِ وَحْدَهُ؛ لِأَنَّ النِّعْمَةَ عَمَّتْهُمْ، وَالتَّفْضِيلَ شَمَلَتْهُمْ، ثُمَّ طَفِقَ يُفْضِلُ النِّعْمَةَ الَّتِي ذَكَرَهَا مُجْمَلَةً فِيمَا سَبَقَ بِذِكْرِ أُمَّهَاتِ أَنْوَاعِهَا، فَذَكَرَ تَفْضِيلَهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ بِمَخْضِ كَرَمِهِ وَفَضْلِهِ.

قال العلامة مُحَمَّد رَشِيد رضا رحمه الله تعالى: «وَهَذَا أُسْلُوبٌ حَكِيمٌ فِي الْوَعْظِ، فَيَنْبَغِي لِكُلِّ وَاعِظٍ أَنْ يَبْدَأَ وَعْظُهُ بِأَحْيَاءِ إِحْسَاسِ الشَّرَفِ، وَشُعُورِ الْكِرَامَةِ فِي نُفُوسِ الْمُوعُوظِينَ، لِتَسْتَعِدَّ بِذَلِكَ لِقَبُولِ الْمُوعُظَةِ.. ثُمَّ إِنَّ فِي الْوَعْظِ مَا يُؤْلِمُ نَفْسَ الْمُوعُوظِ، وَحَرَجًا يَكَادُ يَحْمِلُهَا عَلَى النَّفْرَةِ مِنْ تَلْقِينِهِ، وَالِاسْتِنْكَافِ مِنْ سَمَاعِهِ، فَذَكَرَ الْوَاعِظُ لِمَا يُشْعِرُ بِكِرَامَةِ الْمُخَاطَبِ وَرِفْعَةِ شَأْنِهِ، يُقْبَلُ بِالنَّفْسِ عَلَى الْقَبُولِ، كَمَا يُقْبَلُ الْجَرِيحُ عَلَى مَنْ يُضَمِّدُ جِرَاحَهُ وَيُسَكِّنُ آلَامَهُ.

أَلَا وَإِنَّ هَذَا الشُّعُورَ، شُعُورَ الشَّرَفِ وَالرِّفْعَةِ، مُلَازِمٌ لِلْإِنْسَانِ لَا يُفَارِقُهُ وَلَكِنَّهُ قَدْ يَضْعُفُ حَتَّى لَا يَظْهَرُ لَهُ أَثَرٌ، وَفِي تَحْرِيكِ الْوَاعِظِ لَهُ اعْتِرَافٌ ضَمْنِيٌّ بِكِرَامَةِ وَفَضْلِ لِلْمُوعُوظِ يَشْفَعَانِ لَهُ بِمَا يَسْتَلْزِمُهُ الْوَعْظُ مِنْ مَظَنَّةِ الْإِهَانَةِ فَيَسْهَلُ احْتِمَالُهُ وَيَقْرُبُ قَبُولُهُ». ا.هـ كلام العلامة محمد رشيد رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَيْهِ (١).

وهذا قدوتنا وإمامنا رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَيْهِ، حينما أراد توجيه نقد لابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَتَى عَلَيْهِ ثَنَاءٌ عَطْرًا قَبْلَ نَقْدِهِ فَقَالَ: «نِعْمَ الرَّجُلُ عَبْدُ اللَّهِ لَوْ كَانَ يُصَلِّي مِنَ اللَّيْلِ» (٢).

(١) تفسير المنار ١/ ٣٠٠ - ٣٠٢.

(٢) البخاري (٣٧٣٩)، ومسلم (٦٥٢٥).

٣ - أن يكون النقد للتصرف الذي قام به ذلك الشخص، لا أن يكون النقد للشخص نفسه.

٤ - أن يكون ختام النقد بطريقةٍ ودية، وجملةٍ وعبارةٍ مُحفِّزة، فختام النقد والنصيحةٍ بمثل ذلك يُعين على تقبُّلها، وتطبيبِ خاطرِ صاحبها المنصوح.

٥ - التوازن بين الثناء والنقد، فلا يُعقل أن تُكثر من نقدِ أحدٍ مهما كان، دون أن يسمع منك ثناءً عاطراً، أو مدحاً صادقاً.

فالنفس البشرية لا تقبل مثل هذا، وترى أن من ينقدها ولا يُثني عليها، مُتحاملاً وحاقدًا، أو مُجحفًا مُتتبعًا للزلات.

٦ - عدمُ الإكثار من النقد لشخصٍ واحد، فالإكثار منه يتحول إلى عداوةٍ أو سامةٍ.

٧ - لزوم الحسنى في المقال، وانتقاء اللفظ، وتخيرُ الكلمات، فما كان اللين في شيءٍ إلا زانه، وما نزع من شيءٍ إلا شانته، والله تعالى أمر رسوله ﷺ بقوله: ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [الإسراء: ٥٣]، ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: ٨٣]، فحق الفطن اللبيب - في عَرَضه للحق - التشبه بالطبيب المُشفق، فيرفق وينأى بنفسه عن أسلوب الطعن والتجريح.

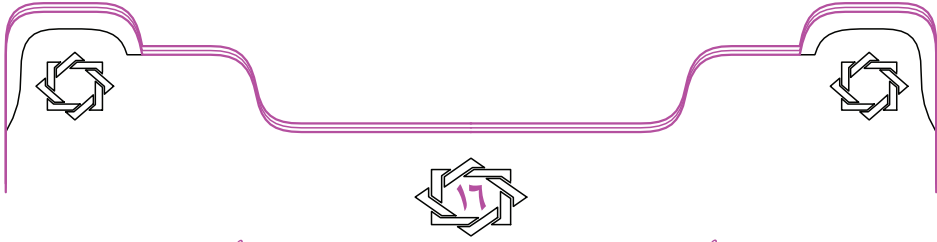
واعلم أننا بهذه الضوابط في النقد والنصيحة، نستطيع حينها أن نُفرق بين (النقد) و(التجريح)، وبين (النصيحة) و(الفضيحة)، وبين (الصدع بالحق) و(التحامل).

فالنقد والنصيحة والصدع بالحق: هي التي التزم صاحبها بهذه الضوابط والآداب.

والتجريح والفضيحة والتحامل: هي التي حادَ صاحبها عن هذه الضوابط والآداب.

بدون هذه الضوابط في النقد: قد تكون كلمات الناقد سهامًا يرمي بها في قلب من نقده، وسيئاً يقطع به صداقته ومودّته.





مُصَارَحَتُهُ بَعْيُوبِهِ بِأَسْلُوبٍ لَيِّنٍ، وَتَقَبُّلُهُ لَذَلِكَ

هذا الحقُّ من أعظم فوائد الصحبة، وإذا لم يتعاهد الأصدقاء بعضهم بعضاً على القيام به فصدقتهم لا تعود عليهم بالنعف والفائدة، وإنما تضيع أوقات.

قال أحدُ السلفِ لصديقه: قل لي في وجهي ما أكره، فإنَّ الرجلَ لا ينصح أخاه، حتى يقول له في وجهه ما يكره^(١).
وصدق الشاعر:

وقد رمى بك في تيهاء مهلكةٍ من بات يكتمك العيب الذي فيك
نعم، ما قيمة الصديق إذا لم يكن مرآة صافية لك، ما قيمة الصديق إذا لم يُخبرك بعيوبك لتُصلحها، وأخطائك لتُصححها؟.

إنَّ من يُخبرك عن عيبك: هو مُحسنٌ إليك، ومن يُنبهك على أخطائك: هو مُتفضلٌ عليك، فكيف تُقابله بالحنق والغضب، أهدأ جزاء الإحسان؟، أين نجد في هذا الزمان من يفعل هذا؟ فهذا هو الناصح حقاً، وليس الصديق الوفي، الذي يراك غارقاً في عيوبك، غافلاً عن أخطائك، وهو ساكتٌ لا يُحرك ساكناً، وصدق القائل: صديقك من صدقك لا من صدقك.

(١) الحلية (تهذيبه) ٥٤/٢، ولكن كما تقدّم سابقاً بأسلوب مقبول، ووقت مناسب.

كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: «رحم الله امرءاً أهدي إليّ عيوبه»، وكان يسأل سلمان الفارسي رضي الله عنه عن عيوبه، فلما قدم عليه قال: ما الذي بلغك عني ممّا تكرهه؟.

فكلُّ مَنْ كان أَرْجَحَ عقلاً، وأقوى ديناً: كان أحرصَ الناسِ على معرفة عيوبه، وأحبَّ الناسِ إليه: مَنْ يُنبهه على تصرُّفاته وسلوكه. فقليلٌ في الأصدقاء مَنْ يكونُ مُخلصاً صريحاً، بعيداً عن المداهنة والمجاملة.

قيل لبعض العلماء - وقد اعتزل الناس وكان منطوياً عنهم -: لِمَ امتنعت عن المخالطة؟ فقال: وماذا أصنع بأقوامٍ يُخفون عني عيوبه. ولو أن إنساناً نبهك أن في ثوبك أو في فراشك حيةً أو عقرباً، لشكرته ودعوت له، وأعظمت صنيعه ونصيحته، وهو كذلك.

ولكن إذا تأملت وجدت أن هذه ضررها على البدن فقط، ويدوم ألمها زمناً يسيراً، وأما ضررُ الأخلاقِ الرديئة: فهي على القلب والدين، ويُخشى أن يمتدَّ ضررها إلى ما بعد الموت، ومع ذلك لا نفرح بمن ينهنا عليها، ولا نشتغلُ بإزالتها.

بل ربما قابلنا نصح الناصح بقولنا له: وأنت فيك وفيك^(١).

قال بعض السلف: ضربة الناصح خيرٌ لك من تحية الشَّانئ؛ أي: المبغض^(٢).

فينبغي للصديق أن يفرح إذا وُجّه إليه نقدٌ من صديقٍ ناصحٍ مُشفقٍ، أو قوبل بنصيحةٍ من مُخلصٍ ناصحٍ، أو صارحه بما يراه ويلاحظه عليه،

(١) يُنظر: إرشاد العباد للاستعداد ليوم المعاد للشيخ عبد العزيز بن محمد السلطان رحمته الله، ص ١٥.

(٢) الصداقة والصديق، ص ١٥٠.

من تصرفٍ لا يُحبه، أو كلامٍ لا يُعجبه، وأن يتقبل ذلك بصدرٍ رحب .
 وكتمان الصديق ما بخاطره قد يتراكم حتى يصل إلى مرحلة الانفجار، فيحدث ما لا تُحمد عقباه .
 فالحلُّ الأمثل أن يبوح بذلك، وأن يتقبل الآخر منه دون أدنى حرج .

قال أبو حاتم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ظاهرُ العتاب خيرٌ من مكثوم الحقد، ورُبَّ عَتَبٍ أَنْفَعُ مِنْ صَفْحٍ .

إِذَا مَا امْرُؤٌ سَاءَتْكَ مِنْهُ خَلِيقَةٌ فَكَاتَمْتَهُ فَالْوَهْنَ فِي ذَاكَ تَرَكَبُ
 لَعَلَّكَ لَوْ عَاتَبْتَهُ ثُمَّ لُمْتَهُ لَسَرَّكَ حَتَّى لَمْ تَكُنْ تَتَعَتَّبُ (١)
 قال ياقوت الحموي: وما أحسن قول العتابي (٢) وأحكمه:

لَوْمْ يُعِيدُكَ مِنْ سُوءِ تَقَارِفِهِ أَبْقَى لِعَرْضِكَ مِنْ قَوْلٍ يُدَاغِيكَ (٣)
 ولقد ضرب سلفنا الصالح رحمهم الله، أروع الأمثلة في قبول الحق من أيِّ أحدٍ كان، والرُّجوع إليه، وعدم الحرج من ذلك .
 لعلمهم بأنَّ عدم الاعتراف بالحق: هو الكبر بعينه، كما قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:
 «الْكِبْرُ بَطْرُ الْحَقِّ، وَغَمَطُ النَّاسِ» (٤) .

فالمتكبر يرد الحق، ويُعرض عنه ولا يقبله؛ لأنه معتدُّ برأيه، جازمٌ بصواب عمله، ومع ذلك يحتقر الناس ويزدريهم؛ لأنه يرى نفسه فوقهم .

(١) روضة العقلاء، ص ١٨١ .

(٢) كما في ديوانه، ص ١٢٩ .

(٣) في الأصل: لُؤْمٌ! وهو خطأ، والتصويب من مُعْجَمِ الْأَدْبَاءِ لياقوت .

والمداجاة: المداراة والمجاملة .

والمعنى: أن لوم الناس لك على أخطائك وعيوبك أفضل وأحسن لك ممَّن يُجاملُك ويُداريك، وهو أسلم لعرضك وسمعتك .

(٤) رواه مسلم (٩١) .

وقد سُئِلَ أَحَدُ الْحُكَمَاءِ: مَا التَّوَاضِعُ؟ قَالَ: أَلَا تُقَابِلُ أَحَدًا إِلَّا رَأَيْتَ لَهُ الْفَضْلَ عَلَيْكَ، بِكَلِمَةٍ قَالَهَا لَكَ، أَوْ مَعْرُوفٍ أَسَدَاهُ إِلَيْكَ، أَوْ ابْتِسَامَةٍ قَابِلِكَ بِهَا.

إِنَّ مِنْ يُذَكِّرُنَا بِأَخْطَائِنَا، وَيُنَبِّهُنَا عَلَى عُيُوبِنَا، قَدْ أَسَدَى لَنَا مَعْرُوفًا عَظِيمًا، فَجَزَاؤُهُ أَنْ نَشْكُرَهُ وَنُثَنِّيَ عَلَيْهِ، وَنَأْخُذَ بِقَوْلِهِ وَنَعْمَلَ بِهِ، فَهَذَا مِنْ عِلَامَةِ الْإِيمَانِ وَصِفَاءِ الْقَلْبِ.

عِلَامَةُ شُكْرِ الْمَرْءِ إِعْلَانُ حَمْدِهِ فَمَنْ كَتَمَ الْمَعْرُوفَ مِنْهُمْ فَمَا شُكِرَ قَالَ ابْنُ الْقَيْمِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: مِنْ عِلَامَاتِ الْخُشُوعِ: أَنَّ الْعَبْدَ إِذَا حُوْلِفَ وَرَدَّ عَلَيْهِ بِالْحَقِّ: اسْتَقْبَلَ ذَلِكَ بِالْقَبُولِ وَالْإِنْقِيَادِ (١).

وقال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لَا تَصِحُّ لَكَ دَرَجَةُ التَّوَاضِعِ، حَتَّى تَقْبَلَ الْحَقَّ مِنْ مَنْ تُحِبُّ، وَمِمَّنْ تُبْغِضُ، فَتَقْبَلُهُ مِنْ عَدُوِّكَ، كَمَا تَقْبَلُهُ مِنْ وَلِيِّكَ. هـ (٢).

وسلفنا الصالح رحمهم الله يفرحون بمن يُخبرهم بأخطائهم وعُيوبهم، ويتمنى بعضهم أن لو كان غنيًا، فيكافأ من يدلُّهم على خطئهم.

كم رأينا من أناسٍ ذكَّروهم أصدقاؤهم بخطأ فيهم، وعيب في سلوكهم وأخلاقهم، فلا يفرحون بذلك، بل يذمُّونه ويحتقرونه.

يقول أحدُ الحكماء العقلاء: «ليس ينبغي أن تغضبَ على صديقك إذا نصح لك في جليلك ودقيقك، بل الأقمَنُ (٣) بك، والأخلقُ (٤) لك أن تتقبَّل ما يقوله، وتبدي البشاشة في وجهه، وتشكره عليه حتى يزيدك في

(١) مدارج السالكين ٥١٦/١.

(٢) مدارج السالكين ٣٢١/٢.

(٣) أي: الأجدر.

(٤) أي: الأفضل والأحرى.

كُلِّ حَالٍ مَا يُجَمِّلُكَ، وَيَكْبِتُ عَدُوَّكَ، وَالصَّدِيقُ الْيَوْمَ قَلِيلٌ، وَالنَّصِيحُ أَقْلٌ، فَمَتَى ظَفِرْتَ بِهَذَا الْمَوْصُوفِ فَاعْلَمْ أَنَّ جَدَّكَ ^(١) قَدْ سَعَدَ، وَنَجَمَكَ ^(٢) قَدْ صَعَدَ، وَعَدُوَّكَ قَدْ بَعُدَ ^(٣).

لِنَعُوذُ أَنْفُسَنَا أَنْ نَعْتَرِفَ بِأَخْطَائِنَا، وَلِنَفْرَحَ بِمَنْ يُصَارِحُنَا وَيَدُلُّنَا عَلَيْهَا، وَلِنَحْذَرَ إِنْ لَمْ نَفْعَلْ ذَلِكَ أَنْ يَنْطَبِقَ عَلَيْنَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَيْسَ الْمِهَادُ﴾ [البقرة: ٢٠٦].

وقد يمنع أحدنا من قبول النقد والرد ما هو فيه من المنصب والعلم والمكانة، وهذه مصيبة عظيمة، قال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ: «أفضل الأشياء التزيد من العلم، فإنه من اقتصر على ما يعلمه، فظنه كافيًا؛ استبد برأيه، وصار تعظيمه لنفسه مانعًا له من الاستفادة، والمذاكرة تبين له خطأه، وربما كان معظمًا في النفوس، فلم يتجاسر على الرد عليه، ولو أنه أظهر الاستفادة، لأهديت إليه مساوئه، فعاد عنها». ا.هـ ^(٤).

والصديق الذي يُصَارِحُ صَدِيقَهُ فِي وَجْهِهِ، خَيْرٌ مِنَ الَّذِي يُجَامِلُهُ ثُمَّ يَغْتَابُهُ فِي غَيْبَتِهِ، وَحَالٌ هُوَ لِأَنَّ كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ:

وَيَلْقَوْنِي بِالْبَشْرِ مَا دَمْتُ فِيهِمْ فَإِنْ غَبْتُ عَنْهُمْ قَطَّعُوا الْجِلْدَ بِالسَّبِّ



(١) أي: حظك.

(٢) أي: مكانتك ومنزلتك.

(٣) الصداقة والصديق، ص ٢٠٢.

(٤) صيد الخاطر، ص ١٤٩.



الثناء الصادق عليه، ودعمه وتشجيعه وشكره

ما أجمل أن يُكثِرَ الصديقُ من شكر صديقه على محاسن أعماله،
ويُثني ويُشجعه على جميلِ فعاله، دون مُبالغةٍ أو تزلفٍ أو نفاقٍ.

والصّدقُ أفضلُ ما لفظت به إِنَّ النِّفَاقَ سَجِيَّةٌ تُرْدِي

والثناء الصادق والتشجيع خُلُقٌ لا يتخلّق به إلا أصحابُ النفوس
الشريفة، كيف وقد سمّى الله تعالى نفسه شاكرًا! فقال: ﴿وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا
فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: 158]، قال العلامة محمد رشيد
رضا رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وَالنُّكْتَةُ فِي اخْتِيَارِ هَذَا التَّعْبِيرِ تَعْلِيمُنَا الْأَدَبَ، فَقَدْ عَلَّمَنَا
سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِهِذَا أَدَبًا مِنْ أَكْمَلِ الْأَدَابِ، بِمَا سَمَّى إِحْسَانَهُ وَإِنْعَامَهُ
عَلَى الْعَامِلِينَ شُكْرًا لَهُمْ، مَعَ أَنَّ عَمَلَهُمْ لَا يَنْفَعُهُ وَلَا يَدْفَعُ عَنْهُ ضُرًّا،
فَيَكُونُ إِنْعَامًا عَلَيْهِ وَيَدًّا عِنْدَهُ، وَإِنَّمَا مَنَعْتُهُ لَهُمْ، فَهُوَ فِي الْحَقِيقَةِ مِنْ نِعْمِهِ
عَلَيْهِمْ، إِذْ هَدَاهُمْ إِلَيْهِ وَأَقْدَرَهُمْ عَلَيْهِ، فَهَلْ يَلِيْقُ بِمَنْ يَفْهَمُ هَذَا الْخَطَابَ
الْأَعْلَى، أَنْ يَرَى نِعَمَ اللَّهِ عَلَيْهِ لَا تُعَدُّ وَلَا تُحْصَى، وَهُوَ لَا يَشْكُرُهُ وَلَا
يَسْتَعْمِلُ نِعْمَهُ فِيمَا سَيَقْتُلُ لِأَجْلِهِ؟ ثُمَّ هَلْ يَلِيْقُ بِهِ أَنْ يَرَى بَعْضَ النَّاسِ
يُسَيِّدِي إِلَيْهِ مَعْرُوفًا، ثُمَّ لَا يَشْكُرُهُ وَلَا يُكَافِئُهُ عَلَيْهِ، وَإِنْ كَانَ هُوَ فَوْقَ
صَاحِبِ الْمَعْرُوفِ رُتْبَةً وَأَعْلَى مِنْهُ طَبَقَةً؟ فَكَيْفَ وَقَدْ سَمَّى اللَّهُ تَعَالَى إِنْعَامَهُ
عَلَى مَنْ يُحْسِنُونَ إِلَى أَنْفُسِهِمْ وَإِلَى النَّاسِ شُكْرًا، وَاللَّهُ الْخَالِقُ وَهُمْ
الْمَخْلُوقُونَ، وَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ وَهُمْ الْفُقَرَاءُ الْمُعْوِزُونَ؟.

فَتَرَكْنَا شُكْرَ النَّاسِ وَتَقْدِيرَ أَعْمَالِهِمْ قَدْرَهَا، سَوَاءً كَانَ عَمَلُهُمُ النَّافِعُ
مُوجِبًا إِلَيْنَا أَوْ إِلَى غَيْرِنَا مِنَ الْخَلْقِ، فَهُوَ جِنَايَةٌ مِنَّا عَلَى النَّاسِ وَعَلَى
أَنْفُسِنَا؛ لِأَنَّ صَانِعَ الْمَعْرُوفِ إِذَا لَمْ يَلْقَ إِلَّا الْكُفْرَانَ، فَإِنَّ النَّاسَ يَتْرَكُونَ
عَمَلَ الْمَعْرُوفِ فِي الْعَالِبِ، فَنُحْرَمُ مِنْهُ، وَنَقَعُ مَعَ الْأَكْثَرِينَ فِي ضِدِّهِ
فَنَكُونُ مِنَ الْخَاسِرِينَ..

ثُمَّ إِنَّ كُفْرَانَ النَّعْمِ، لَا بَدَّ أَنْ يُؤَثَّرَ فِي نَفْسٍ مِنْ عَسَاهُ يُوجَدُ مِنْهُمْ،
فَإِنْ لَمْ يَكُنْ أَثَرُهُ تَرَكَ السَّعْيَ وَالْعَمَلَ، كَانَ الْفُتُورَ فِيهِ..

كَذَلِكَ الشُّكْرُ يُؤَثَّرُ فِي إِنْهَاضِ هِمَّةِ أَعْلِيَاءِ الْهِمَّةِ، مِنَ الْمُخْلِصِينَ فِي
أَعْمَالِهِمْ، الَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عَلَيْهَا جَزَاءً وَلَا شُكُورًا؛ ذَلِكَ أَنَّهُمْ يَرَوْنَ
عَمَلَهُمُ الْخَيْرَ نَافِعًا فَيَزِيدُونَ مِنْهُ، كَمَا أَنَّهُمْ إِذَا رَأَوْهُ ضَائِعًا يَكْفُونُ
عَنْهُ. ١.١. هـ رَحِمَهُ اللهُ (١).

وها هو القائد الأعظم، والرسول الأكرم ﷺ، الذي كسب بَقِيمِهِ
صَفْوَةَ الرِّجَالِ، وَصَنَعَ بِأَخْلَاقِهِ وَتَشْجِيعِهِ الْأَبْطَالَ، يُثْنِي وَيَشْكُرُ النَّاسَ
عَلَى مَحَاسِنِ أَعْمَالِهِمْ، وَفَضَائِلِ خِصَالِهِمْ، فَيَشْكُرُ رَجُلًا فَيَقُولُ: «إِنَّ فِيكَ
خَصْلَتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللهُ: الْحِلْمُ، وَالْأَنَاةُ» (٢).

ويشكر ويثني على آخر فيقول: «نِعْمَ الرَّجُلُ عَبْدُ اللهِ، لَوْ كَانَ يُصَلِّي
مِنَ اللَّيْلِ» (٣).

وأما شكره لأبي بكرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فلا يُحْصَرُ، وَثَنَاؤُهُ عَلَى عَمْرِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَشْهُرٌ
مِنْ أَنْ يُذْكَرَ.

(١) تفسير المنار ٢/٤١ - ٤٢.

(٢) رواه مسلم (١٧).

(٣) البخاري (١١٢٢)، ومسلم (٢٤٧٩).

فشكر الأصدقاء وغيرهم والثناء عليهم - بما فيهم - صفة لا يتحلى بها إلا شرفاء الناس، أصحاب القلوب الصافية السليمة، وهي من أعظم ما تدخل السرور على الصديق.

ثناء من خليلٍ خيرٍ كسبٍ لصاحبِ نعمةٍ وأخي ثراءٍ^(١)
وإن الشكر والثناء لا يستغني عنه الصديقُ مهما كبر سنُّه، وعظم قدره، وقويت صلته، فالكبير إذا مدحه طفلٌ صغيرٌ بصفةٍ تميّز بها عن غيره، فرح بها، فكيف لو جاء هذا المدح من كبيرٍ خبيرٍ؟.

ولو كان يستغني عن الشكرِ ماجدٌ لرفعة شأنٍ أو علوِّ مكانٍ
لما أمرَ اللهَ العبادَ بشكره فقالَ اشكروني أيُّها الثقلانِ



(١) كنوز المروءة في الصداقة والأخوة ٢/٣٤٩.



استعمال الحكمة والرفق عند سوء التفاهم

ليس من العيب ولا من الغريب أن يحدث خطأً من أحد الأصدقاء تجاه صديقه، فالخطأ من طبيعة البشر، ولكن العيب والرزية أن يصنع الصديق من هذا الخطأ مشكلةً، وباباً لتصفية الحسابات، والدخول في النيات.

ولا يخفى على أحدٍ منَّا مدى تأثير الخلافات على العلاقات بين الناس، بل بين القبائل وحتى على مستوى الدول فيما بينها، لأسبابٍ قد تصل لدرجة القطيعة والعداوة، بسبب تمسك كل طرفٍ برأيه وقناعته، بأنه هو المظلوم والمعتدى عليه، وأنه لم يصدر منه أيُّ خطأ في حق غيره، مما يجعل الصلح وحل الخلاف أمراً صعباً مُعقّداً.

وتختلف أسباب الخلافات لكل مشكلة، فهناك خلافاتٌ أسبابها قويةٌ لا تُحتمل، وهناك خلافاتٌ يسيرةٌ بل تافهة، نجعل منها قضايا كبيرة، تقودنا إلى طريق المشاحنات والسباب، حتى تصل بنا في النهاية إلى هاوية القطيعة، والعجبُ أن غالب مشاكلنا من هذا النوع.

وينبغي لكل من حصل بينه وبين صديقه أو قريبه مشكلةً أو سوء تفاهم أو مكرهه أن يُبادر إلى زيارته، لفهم وجهة نظره، وسبب فعله، ومحاولة تحجيم المشكلة لا تضخيمها.

فأفضل طريقٍ لقطع دابر الشر والفتنة: المقابلة والمواجهة بين

الطرفين، لا المراسلة ولا المُكالمة، فالمُكالمة قد لا تُعالج المشكلة؛ لأنَّ الإنسانَ قد يَجْتَرُّ في الكلامِ حالَ عدمِ المواجهة.

وأما المراسلات بالجوال ونحوه، فهذه ضررها قد يكون أكثرَ من نفعها، وكم تأزمت الأمور برسالةٍ قُصد بها الإصلاحُ أو العتاب، وخاصةً إذا أرسلت في مجموعة الأصدقاء أو الأقارب، التي ما أنشئت إلا لتقوية أواصر المحبة، وزيادة الألفة والترابط، فيرسل أحد أعضاء هذه المجموعة، نقدًا أو عتابًا لأحد الأعضاء، فينقسم الأعضاء بين مؤيِّدٍ ومُعارضٍ، فينتهي المطافُ بهم، إلى الخروج من هذه المجموعة، والنفوسُ مُكدَّرة، والقلوبُ نافية^(١).

وهذا من قلة الحكمة والعقل، ومن المعلوم أنَّ النصيحة في العلانية فضيحة، فكيف بالعتاب واللوم والسباب؟. ولو أنه قابلَ صاحبه وتفاهم معه لكانت العاقبة محمودة.



(١) نافية؛ أي: مُتفرقة، مفردها: نَفَرٌ، وبعضهم يقول: مُتنافرة، والأصح ما ذُكر، والله أعلم.

قال في القاموس المحيط، مادة: (النَّفَرُ): نَفَرَتِ الدَّابَّةُ تَنْفِرُ وَتَنْفِرُ نُفُورًا وَنِفَارًا فَهِيَ نَافِرٌ وَنُفُورٌ: جَزِعَتْ وَتَبَاعَدَتْ.



الحلم، وكتمان غيظه وغضبه

يبغني للصديق أن يكتم غيظه وغضبه على صديقه، وأن يكون حليماً رقيقاً مع أخطاء صديقه، وأن يكتم غضبه قدر الإمكان، وأن لا يستعجل في الردّ على الخطأ والزلل، ومن ركب العجلة لم يأمن الكبوة، فإن كان سريع الغضب فلا بدّ أن يُعالج نفسه حتى لا يخسر أصدقاؤه.

وليكن لسان حاله:

وأغضي على أشياء لو شئتُ قتلتها ولو قتلتها لم أبقِ للصُّلحِ مَوْضِعًا
ولُيعلم أنه لا بد لكل داءٍ من دواء، ودواء الغضب عند هيجانه في
الأمور التالية:

الأول: أن يتفكر في ما وردَ في فضل كظم الغيظ، والعفو والحلم والاحتمال، فيرغب في ثوابه، وينظفئ عنه غيظَه حينئذٍ بإذن الله.

الثاني: أن يخوف نفسه بعقاب الله تعالى، وهو أن يقول: قدرة الله عليّ أعظم من قدرتي على هذا الإنسان، فلو أمضيت غضبي عليه، لم آمن أن يمضي الله غضبه عليّ يوم القيامة، وأنا يومها أحوج ما أكون إلى طلب العفو.

الثالث: أن يُحذر نفسه عاقبة العداوة والانتقام، وهو لا يخلو عن المصائب والأضرار، التي أقلها تشويش خاطر، والتعب النفسي، وقد يُصاب بأمراضٍ خطيرة بسبب ذلك.

الرابع: أن يتفكر في قبح صورته عند الغضب، بأن يتذكر صورة غيره في حالة الغضب.

فإذا أردت أن تعرف بشاعة الغضب وقبحه: فانظر إلى ما يصدر منك حال غضبك، تأمل فيما يصدر منك من أقوالٍ قبيحة، وشتائم بذيئة، وتهديداتٍ سخيفة، وعباراتٍ بشعة.

وتأمل في قبح منظرك ووجهك، ولو رأيت منظرك حال غضبك لاستقبحت ذلك، ورأيت وجهًا قد انتفخ واحمر، وعينانٍ قد احمرتا وتوسعت حدقتهما، ورأيت يديك تجولُ في كلِّ اتجاه، حينها تعلم نعمة العقل والحلم.

الخامس: أن يتفكر في السبب الذي يدعوه إلى الانتقام، ويمنعه من كظم الغيظ، وهو الشيطان، الذي أخذ على نفسه إضلال بني آدم.

السادس: أن يعلم أنه إذا عفى وصفح فسوف ينقلب خصمه وعدوه إلى صديق حميم، وأما إذا أمضى غضبه فسوف تزداد العداوة.

وليس معنى كظم الغيظ أن يسكت الإنسان عن أخطاء أصدقائه، وتطاولهم وقلة أدبهم، والسكوت عن التشفي في الحال قد يُصيب الإنسان بالضرر الخطير، حيث يحتقن الغضب في باطنه فيصير حقدًا.

ولكن معنى كظم الغيظ: أن يتحكم في نفسه، ولا يصدر منه ما لا ينبغي، فلا يردّ بكلامٍ فظٍّ غليظ، بل يُجيب خصمه ويردُّ عليه بحكمةٍ ورويةٍ، دون عجلةٍ وكلامٍ بذيءٍ.

ولم أر في الأعداء حين اختبرتهم
عدوًا لعقل المرء أعدى من الغضب

ومما ينبغي أن يُعلم، أن الغضب الطارئ والعارض لا يسلم منه أحدٌ من البشر، فقد يمرُّ بنا موقفٌ ما يُثير غضبنا، فننفعل ونحتد، لكن أن يكون الغضبُ سمةً بارزةً علينا، نغضب في أتفه الأسباب، ولا

نتحكم بانفعالاتنا، فهذا الذي يجب على كلِّ عاقلٍ أن يحذر منه، وهو ما جاءتِ الشريعةُ بدمه .

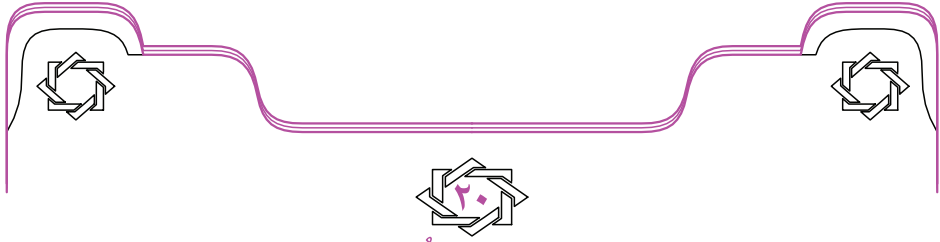
وينبغي للبيب أن يلتزم الصمت حال غضب صاحبه وعَتَبِه عليه، أو يردّ بكلام لطيفٍ، فإنه إذا ردّ عليه بجفاءٍ، أو جادله فإنه سيزيد من غضبه، ويُغلق أو يصعب باب الصلح .

إذا ما الصَّحْبُ جَارَ فَقُلْ صَوَابًا فَإِنَّ الْجَوَرَ يُدْمَغُ بِالصَّوَابِ
ويبني أن يُعامله بما قال الشاعر الحكيم ^(١):

ليس عندي وإن تغصبت إلا طاعةً حرةً وقلبٌ سليم
وانتظارُ الرضا فإن رضى السا دات عزٌّ وعَثبهم تقويم



(١) الصداقةُ والصدق، ص ٢٤٤.



عدمُ عتابه بقسوة، والإقلالُ منه إن كان بلطف

العتاب في اللغة: هو اللوم والتقريع، والبوح للصديق بما وجد عليه.

قال ابن الأثير رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: يُقَالُ: عَتَبَ عَلَيْهِ يَعْتَبُ وَيَعْتَبُ مِنَ الْمَوْجِدَةِ وَالغَضَبِ.

والعِتَابُ: مُخَاظَبَةُ الْإِدْلَالِ وَمُذَاكِرَةُ الْمَوْجِدَةِ. ١. هـ (١).

وعتاب الصديق على نوعين:

النوع الأول: عتابٌ لا يستغني عنه أحدٌ، ولا تدوم صداقةٌ ومودَّةٌ بدونه، وهو مخاطبة الإدلال، والعتاب بلطف أسلوب، وإخباره بأنه لا يرغب بالشيء الفلاني، ويُصارحه بلطفٍ عن شيءٍ رآه منه وأزعجه مثلاً. وهذا لا غنى لأحدٍ عنه، كما قال الشاعر:

أُعتابُ ذا المودَّةِ من صديقٍ إذا ما رابني منه اجتنابُ
إذا ذهب العِتَابُ فليس وُدٌّ ويبقى الوُدُّ ما بقى العِتَابُ

وهذا العتاب يُفيد كثيراً إذا كان بأسلوبٍ رقيقٍ جميل، ولم يكن كثيراً مُملاً.

زيادةُ العِتَابِ نقضٌ لِلوَدَادِ فلا تُكثِرُ عِتَابَ الَّذِي تَرَجُو مودَّتَهُ

(١) النهاية، مادة: (عتب) ١٧٥/٣.

أما إذا كان يسيراً فهو ينفع ويُفيد، بل «ربما أصلح وردَّ الفئات، وشعَّب الصدع، ولمَّ الشعث، والإكثار منه ربما عرَّض بالحقد، وأحدث نوعاً من النُّبُو^(١)، وقد قيل: وما صافيت من لا تعاتبه، وربما كان العود إلى الصفاء بعد هذا الكدر فوق ما عَهَدَاهُ فِي الْأَوَّلِ»^(٢).

وما أجمل تقديم عفوك له قبل عَتَبِهِ، فَإِنَّ هَذَا مِنْ أَعْظَمِ أَخْلَاقِ الْكِرَامِ، قَالَ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٣]، فقل أنت لمن تعتب عليه: عفا الله عنك وسامحك لم فعلت كذا؟ بأسلوبٍ لطيف.

النوع الثاني: هو اللوم والتقريع بأسلوبٍ فُظٍّ غليظ، وهذا هو الذي يجب على الصديق اجتنابه بتاتاً، والنوع الأول يُجتنب الإكثار منه، فالإكثار من كل شيءٍ مُمِلٌّ.

ونهاية هذا العتاب غالباً الهجر والقطيعة، وصدق القائل^(٣):

أرَدْتُ عِتَابَكُمْ فَصَفَحْتُ إِنِّي رَأَيْتُ الْهَجْرَ مَبْدَأَ الْعِتَابِ
فبعض الأصدقاء يَفْتَحُ على صديقه باب المَعْتَبَةِ، وَيُحَوِّجُهُ إِلَى أَنْ يُغْلِقَهُ عَنْهُ بِالْمَعذِرَةِ، وَتَكْلُفِ الْحُجَّةِ، وَيُكَلِّفُهُ مِنْ ذَلِكَ مَا لَمْ يَكُنْ لَهُ خُلُقًا وَلَا عَادَةً.

وبعض الأصدقاء إذا انقطع صديقه عنه عاتبه لانقطاعه، وإذا طلب منه حاجةً أو قرضاً، فلم يستطع تحقيق ذلك حمل في نفسه عليه، ورُبَّمَا أَذَاهُ ذَلِكَ إِلَى فَتُورِ عِلَاقَتِهِ مَعَهُ.

وكثيراً ما خسر الصديق صديقه بكثرة عتابه، وشدة لومه.

(١) النَّبِيُّ: الإعراض والنفر من الشيء، تقول: نبا عني؛ أي: جفاني وأعرض عني.

(٢) الصداقة والصديق، ص ١٤٤.

(٣) الصداقة والصديق، ص ١٧٨.

يقول ابن حزم رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: العتاب للصديق كالسَّبْكِ للسبيكة، فإما تصفو وإما تطير. ١.١. هـ. (١).

فيا أيها المعاتب صديقه، والمحاسب له على زلته، لو تدبّرت لعلمت أنك أولى بالعتاب منه، حيث لم تصبر وتتمالك نفسك، ولم تلتمس له عذراً، ولم تُعاتبه بأسلوبٍ يليق بمقامه.

أَقْلِلْ عِتَابَكَ فَالزَمَانُ قَلِيلٌ والدهرُ يَعْدِلُ مَرَّةً وَيَمِيلُ
ولعل أيام الحياة قصيرة فعَلَامَ يَكْثُرُ عَتْبَانَا وَيَطْوِلُ؟
ولقد أحسن الآخر في قوله (٢):

إذا كنت في كلِّ الأمور معاتباً صديقك لم تلق الذي لا تُعاتبه
فعش واحداً أو صلِّ أخاك فإنه مقارِفُ ذنبٍ مَرَّةً وَمُجَانِبُهُ

ومن أبغض أنواع العتاب: ما كان عن طول الغياب!، وهذا لا ينبغي للصديق ولا للقريب القيام به، فلومه على طول فراق صديقه تزكيةً لنفسه بأنه واصل قائم أتم القيام بحق صديقه، ولكن الصديق هو المُقصر المفرط!.

هذا هو المفهوم من العتاب، وهو الذي يخطر ببال المُعَاتَبِ مُباشرةً، انظر كيف صار يعدر نفسه ويعذر صاحبه، ويُعفي نفسه ويطلبه، ولسان حاله: وأين دورك أنت في وصالي وزيارتي، أو على الأقل: الاتصال بي؟.

(١) رسائل ابن حزم، ص ٣٥٩.

وسبَّكَ السبيكة: أذابها وصنع منها أشكالا للحلي، تقول: سبَّكته التجارِبُ: حَكَّكته، عَلَّمْتَهُ، هَدَيْتَهُ.

والسبيكة: قطعة مستطيلة من المعدن.

(٢) الصداقة والصديق، ص ١٦٥.

وربَّما كان الحقُّ عليك في تَعَهُّدِهِ أَوْجَبَ مِنْهُ عَلَيْكَ لِفِرَاغِكَ وَشِغْلِ
صَاحِبِكَ .

بل إذا طال غيابُكَ عن صَاحِبِكَ فأخبره بمشاعرك تجاهه، وعن
تحسُّرك لعدم وجود الفرصة المناسبة للقائه، وليكن لسانُ حالك ومقالك
كما قال الشاعر^(١) :

لَيْنَ عَاقٍ جِسْمِي عَنِ لِقَائِكَ مَانِعٌ فَمَا عَاقَ قَلْبِي عَنِ لِقَائِكَ عَائِقُ
فَإِنْ ظَهَرَتْ مِنِّي دَلَائِلُ جَفْوَةٍ فَمَا أَنَا إِلَّا مُخْلِصُ الْوُدِّ صَادِقُ
أَوْ قَلَّ لَهُ كَمَا قَالَ الْآخِرُ^(٢) :

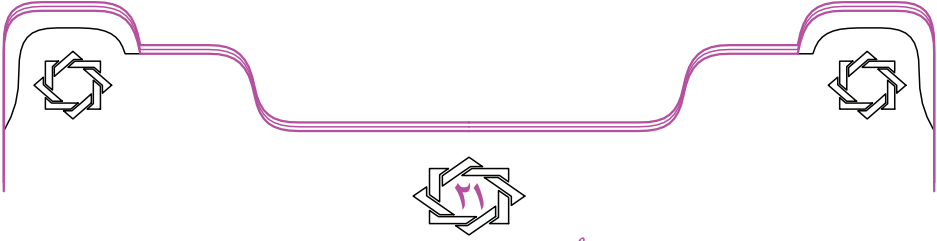
لَيْنُ غَيْبَتٍ عَنِ عَيْنِي بِالْبُعْدِ وَالنَّوَى^(٣) لَمَّا غَيْبَتْ عَنِ فِكْرِي وَعَنْ نَاطِرِ الْقَلْبِ
أَرَاكَ عَلَى بُعْدِ الْمَسَافَةِ بَيْنَنَا كَمَا تُبْصِرُ الْعَيْنَانِ مِنِّي عَلَى الْقُرْبِ



(١) مُحَاضِرَاتُ الْأَدْبَاءِ ١/ ٣٤٣ .

(٢) الصِّدَاقَةُ وَالصَّدِيقُ، ص ٢٦٤ .

(٣) النوى: هي الناحية والجهة يُذهب إليها لحاجةٍ أو ضرورةٍ .



الصبرُ عليه، وسترُ عيوبه، والعفو والصفح عنه

لا بدّ لك - أيها الصديق المخلص - أن تسترَ عيبَ صديقك، وتغفرَ ذنبه، وتتجاوزَ عن أخطائه، ولا تقفَ عند عثراته، فإنّ لم تفعلْ فلن يدوم لك صديق.

وكنْتُ إذا الصديق أراد غَيْظي وأشرقني على حنقِ بريقي
 عفوتُ ذنوبه وصفحْتُ عنه مخافةً أن أعيشَ بلا صديق
 واحذِرْ أن تسيرَ على منهجِ الجاهليّة، الذي تمثله شاعرهم بقوله^(١):

أَلَا لَا يَجْهَلَنَّ أَحَدٌ عَلَيْنَا فَنجَهَلْ فوق جهلِ الجاهليّينا

فهو لم يقتصرْ على الردِّ بالمثل، بل زاد عليه، وبعضُ الأصدقاء - هداهم الله - ربما فعلوا مثل ذلك، فكم من صديقٍ كان ردهُ على خطأ وزللِ صديقه قاسياً مُجْحِفاً، جائراً ظالماً، يردُّ الصاع صاعين، والخطأ خطئين، بل ربّما هجره! وهذا أعظم وأشنعُ من ذنب صاحبه - ما لم يكن إثماً - وكلُّ هذا من الظلم ونكران المعروف، ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ [النحل: ١٢٦].

وما أحسن قول القائل:

وَمَنْ لَمْ يَطْبُ نَفْسًا وَيَسْتَبِقِ صَاحِبًا وَيَغْفِرَ لِأَهْلِ الْوُدِّ يَضْرِمَ وَيُضْرَمَ

(١) هو عمرو بن كلثوم التغلبي، كما في معلقته.

ولن تجد صفةً تعيها في صديقك إلا وجدت صفةً أخرى تستحسنها
كما قال الشاعر:

إذا عبتُ منه حُلَّةً فهجرته دعتنني إليه حُلَّةً لا أعيبها
بعضُ الأصدقاء يكون بخيلاً، لكنَّ عنده من الأخلاق والصفات
الأخرى ما تُرْفَعُ هذا الخلق، وتسُدُّ ثَلَمَ هذا الخرق، كأن يكون خدوماً
سمحاً مؤنساً، فاصبر ودارِ بخله لتستمتع بِمَحاسنه الأخرى .
بعضهم يكون عنيداً شديد التمسك برأيه، لكنه مع ذلك يكون كريماً
باذلاً، سديد الرأي، ذا خبرةٍ وتجارب، فاصبر ودارِ عناده، وامدح رأيه
ووافقه - قدر الإمكان - لتستمتع بِمَحاسنه الأخرى .

فالقاعدة إذن: اصبر ودارِ عيبه لتستمتع بِمَحاسنه، وتَسْتَدِيمِ صُحبته .
إذا أنتَ لم تغفرَ ذنوباً كثيرةً تُرِيْبُكَ لم يسلمْ لك الدهرَ صاحبُ
ومنْ لا يُغْمِضُ عينَهُ عن صديقه وعن بعضٍ ما فيه يُمْتُ وهو عاتبُ
والصديق العاقل لا يعمل ما يُثير الصفة السيئة في صديقه، ويتحاشا
ما يُهيجها أو يُحركها .

فإذا علمتَ أنَّ صديقك لا يُحب نقدَ فلانٍ أو جماعةٍ، أو يكره
التعليق عليه، أو يُبغضُ كلماتٍ مُعيَّنةً، أو موضوعاً ما: فمن السخافةِ
وقلَّةِ الوفاءِ والعقل أنْ تذكِرَ ذلك عنده .

قال بعض السلف الصالح: مَنْ أَحَبَّ الناسَ صنع ما يُحبه الناس
- ما لم يكن إثمًا - ^(١) .

ولا بدَّ للصدّاقةِ أنْ يشوبها نوع كَدْر، أو يحضُلَ من أحدهم غضبٌ
أو ضرر، وهذه هي الطبيعة البشرية، التي يعتريناها النقصُ والنسيانُ وتغيُّرُ

(١) الصداقة والصديق، ص ٢٩٤ .

المزاج، فإذا كان كذلك فلا بدّ أن يسودّ التسامح بين الأصدقاء،
والتغاضي عن الزلات والأخطاء.

أتطلبُ صاحبًا لا عيب فيه وأيُّ الناسٍ ليس له عُيوبُ
قال أبو حاتم رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وما الفضل إلا لمن يُحسِن إلى من أساء إليه،
فأما مُجازاة الإحسان إحسانًا فهو المساواة في الأخلاق، فلربّما
استعملتها البهائم، ولو لم يكن في الصّفيح وتركِ الإساءة خصلة تُحمدُ إلا
راحة النفس لكان الواجب على العاقل ألا يُكدرَ وقته بالدخول في
أخلاق البهائم بالمجازاة على الإساءة إساءة، ومن جازى بالإساءة إساءةً
فهو المسيءُ وإن لم يكن بادتًا. ١. هـ. (١).

فلا بد للصدّيق أن يصبر على زلات صديقه، وكبوات خليله، حتى
يهنأ بلا كدر، ويسلم من الضجر.

عاشر أخاك على ما كان من خلقٍ واحفظُ مودّته بالغيب ما وصلا
فأطولُ الناسِ غمًا من يُريدُ أخًا ذا خُلّةٍ لا يرى في وُدّه خَللًا
وما أجمل ما قاله الفضل بن يحيى رحمه الله تعالى: الصبر على
أخٍ تعتب عليه خيرٌ من آخرٍ تستأنف مودته (٢).

وقال الأحنف رحمه الله تعالى: من حقّ الصديق أن يُحتملَ له ظلم
الغضب، وظلم الدّالة (٣)، وظلم الهفوة (٤).

هَبْنِي أَسَأْتُ كَمَا زَعَمْتَ فَأَيْنَ عَاقِبَةُ الْأَخْوَةِ
وَإِذَا أَسَأْتَ كَمَا أَسَأْتُ فَأَيْنَ فَضْلُكَ وَالْمَرْوَةِ

(١) روضة العقلاء، ص ٩١.

(٢) الصداقة والصدّيق، ص ٤٠.

(٣) أي: الدلال، وهو ما نسميه: الميانة، وهي أن تكون بينهما مودّة وانسباط، ولا يجد
أحدهما حرجًا أو تكلف في تعامله مع صديقه.

(٤) الصداقة والصدّيق، ص ٦٩.

وإذا لم يصبر الصديقُ على بعض ما لا يُعجبه من صديقه، فربما
ابتلي بصديقٍ نكِدٍ أو عسيرٍ يعرف حينها قَدْرَ الأول.

سَتَذْكُرُنِي إِذَا جَرَبْتَ غَيْرِي وَتَعْلَمُ أَنَّي لَكَ كُنْتُ كَنْزًا
سَتَنْكُثُ نَادِمًا فِي الْأَرْضِ بَعْدِي وَتَعْلَمُ أَنَّ رَأْيَكَ كَانَ عَجْزًا

والعفو والصفح الجميل هو الذي لا توبخ ولا تأنيب معه.

قال بعض البلغاء: ليس تكمل محاسنُ الصَّفْحِ إِلَّا بِالْإِضْرَابِ (١) عن
مدلَّةِ التَّوْبِيخِ، فَإِنَّ التَّأْنِيبَ أَوْجَعُ وَقَعًا فِي وَجْهِ الْكَرِيمِ مِنْ وَقَعِ الضَّرْبِ
فِي بَدَنِ اللَّئِيمِ (٢).

كُنْ كَالنَّخِيلِ عَنِ الْأَحْقَادِ مَرْتَفَعًا يُؤْذَى بِرَجْمٍ فَيُعْطِي أَطْيَبَ الشَّمْرِ
وَلَا يَنْبَغِي لِلصَّدِيقِ أَنْ يُذَكَّرَ صَدِيقَهُ بِهَفْوَاتِهِ السَّابِقَةِ، بَلْ يَنْبَغِي أَنْ
يُخْفِيهَا وَيَطْوِيهَا.

قال سهل بن هارون: العفو الذي يقوم مقام العتق ما سلِمَ مِنْ
تَعْدَادِ السَّقَطَاتِ، وَخُلِّصَ مِنْ تَذْكَارِ الزَّلَاتِ (٣).

وخاصةً إذا ندم على ما كان منه، وليكن لسان حالك:

فإن فاء لم أعدد عليه ذنوبه وهل بعد فيئات الرجالِ ذُنُوبٌ؟
وَلَا يَنْبَغِي لِلصَّدِيقِ كَذَلِكَ أَنْ يُذَكَّرَ صَدِيقَهُ بِفَضَائِلِهِ السَّابِقَةِ عَلَيْهِ،
فَيَقُولُ: هَلْ نَسِيتَ مَا فَعَلْتُ مَعَكَ يَوْمَ كَذَا وَكَذَا!، فَهَذَا مِنْ غَيْرِ مُقْبُولٍ
أَبَدًا، فَإِنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَهُوَ كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ:

(١) أي: الإعراض.

(٢) الصداقة والصديق، ص ٢٠٩.

(٣) الصداقة والصديق، ص ٢٠٩.

أَفْسَدَتْ بِالْمَنِّ مَا أَسَدَيْتَ مِنْ حَسَنِ لَيْسَ الْكَرِيمُ إِذَا أُعْطِيَ بِمَنَّا
خَيْرُ الْأَصْحَابِ - كما قال الحكماء -: من ستر ذنبك فلم يُقَرِّعْكَ،
ومعروفه عندك فلم يَمُنَّنْ عليك.

قال أبو حيان التوحيدي رحمته الله^(١): «نظرتُ في حال الإنسان،
وصَوَّبْتُ طرفي فيه وصَعَّدْتُ، وحَسِبْتُ ما له وما عليه وحصلتُ،
وأَجَمَلْتُ ما به وفيه وفَصَّلْتُ، فلم أجد له شيئًا خيرًا من الصبر، فيه
يُقَاوِمُ المكروه، وتُستدْفَعُ البليَّة، وبه يُؤدَّى شكر النعمة، وما أحلى ما
أشار إليه الشاعر حين قال:

إنَّ الزمان على اختلاف مروره ما زال يَخْلِطُ حُزْنَهُ بسروره
لم يَصْفُ عيشًا مُنْذُ كان لِمَعْشَرٍ إلا وَعَادَ يَجِدُّ فِي تَكْدِيرِهِ
فالعاقل النَّحْرِيرُ يُلْزِمُ نَفْسَهُ صبرًا عليه في جميع أموره
وأحقُّ ما صَبَرَ امرؤٌ من أجله ما لا سبيل له إلى تَغْيِيرِهِ»
لن تجدَ مُتَعَةَ الصُّحْبَةِ حتى تُعَامِلَ أصحابك بالمسامحة، قال
بعضهم: مَنْ عاشر الناس بالمُسامحة دام اسْتِمْتَاعُهُ بهم.

وكنْتُ إذا صحبتُ رجال قوم صحبتُهُمْ وشيمتِي الوفاءُ
فأحسنُ حين يُحسنُ مُحْسِنُوهُمْ وأجتنبُ الإساءةَ إن أساؤوا
وأبصرُ ما يَعِيبُهُمْ بعين عليها من عُيُونِهِمْ غِطَاءُ



(١) الصداقة والصدق، ص ٨٧.

الموقف السليم مع الصديق القاطع والمُجاني

ينبغي للصديق إذا رأى من صديقه الوفيّ نوعَ جفوة، أو بدايةَ قطيعة، ألا يُلحَّ عليه ويكثر من عتابه، فهذه حالةٌ من الفتور تعتري الكثير من الأصحاب والخلان، وليكنْ لسان حاله ومقاله ما قاله مَنْ كان على مثل حاله^(١):

رأيتك لا تختار إلا تباعدي فباعدتُ نفسي لا تباع هَواكا
فبُعْدُكَ يُؤذيني وقُرْبِي لَكُمْ أذى فكيف احتيالي يا جُعِلْتُ فداكا؟
واحذرْ أنْ تُسمعه كلماتٍ قاسيةً بسبب هُجرانه، أو تفعل ما يُغضبه
ويثير الحقد في صدره، فتسدد الطرق في إرجاعه.

يقول أحدُ الحكماء^(٢): لا تقطعْ أحدًا إلا بعد عجزِ الحيلة عن استصلاحه، ولا تتبَّعه بعد القطيعة وقيةً فينسدَّ طريقه عن الرجوع إليك، فلعل التجارب ترُدُّه إليك، وتُصلحه لك.

وليس بصوابٍ ما قاله الشاعر:

إني إذا ما الخليلُ أحدث لي صرْمًا وملَّ الإخاءَ أو قطعاً
لا أحتسي ماءه على رَنَقٍ ولا يراني لبينِه جَزَعًا
والمعنى: إذا الصديقُ هجرني وملَّ إخائي أو قطعني فإني لا
أحتسي ماءه على رَنَقٍ، والرَنَق هو الكدر يُصيب الماء الصافي، ولا
يراني لبينِه؛ أي: لقطيعته جَزَعًا قلقًا لذلك!!

(١) الصداقة والصديق، ص ٢٣٧.

(٢) الصداقة والصديق، ص ٢٥٩.

وحينما سمع هذا أحد الحكماء والعقلاء قال: «هذا ظلم، لِمَ لا أحتسي ماءه على كَدَر، وِلِمَ لا أجزع لفراقه، وِلِمَ لا أستصلحه وأتلف له إذا أحدث لي صِرْمًا؟ ولعلَّ صِرْمه عارض، ومَلَّه عن غير عقيدة، وقطعه غَلَط، كأنَّ الصديق مَكْسُوبٌ بسهولة، وموجودٌ متى طلب؟، وهيئات!»^(١).



(١) الصداقة والصديق، ص ١٦٨، مع بعض التصرف.

نصيحة لمن هجر وقطع صديقه أو قريبه

اسْمَعِ يَا مَنْ هَجَرْتَ وَقَطَعْتَ صَدِيقَكَ أَوْ قَرِيبَكَ إِلَى مَوْقِفِ الصَّدِيقِ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حَيْثُ كَانَ يَنْفِقُ عَلَى مَسْطَحٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لِقَرَابَةٍ بَيْنَهُمَا، فَهُوَ ابْنُ خَالَتِهِ، وَكَانَ مِمَّنْ تَكَلَّمَ فِي الْإِفْكِ، بَلْ هُوَ مِمَّنْ اتَّهَمَ عَائِشَةَ ابْنَتَهُ صِرَاحَةً بِمَا بَرَّأَهَا اللَّهُ مِنْهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فَحَلَفَ أَبُو بَكْرٍ أَلَّا يَنْفِقَ عَلَيْهِ.

فَانظُرْ وَتَأْمَلْ كَيْفَ لَمْ يَهْجِرْهُ وَلَمْ يُقَاطِعْهُ، وَإِنَّمَا قَطَعَ النِّفْقَةَ فَقَطْ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [النور: ٢٢].

فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: بَلَى وَاللَّهِ، أَحَبُّ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لِي، وَرَدَّ إِلَى مَسْطَحٍ نَفْقَتَهُ وَقَالَ: وَاللَّهِ لَا أَنْزَعُهَا أَبَدًا ^(١).

تَأْمَلْ يَا مَنْ قَطَعْتَ وَهَجَرْتَ أَخَاكَ أَوْ صَدِيقَكَ، أَوْ سَبَيْتَهُ أَوْ تَكَلَّمْتَ عَلَيْهِ بِقَسْوَةٍ وَحِدَّةٍ، كَيْفَ نَهَى اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يَقْطَعَ الْمَعْرُوفَ عَمَّنْ اتَّهَمَ عَرْضَهُ وَشَرْفَهُ.

وَهَلْ تُقَارِنُ مَا تَعْرِضُ لَهُ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مِنْ ظُلْمٍ مِنْ قَرِيبِهِ مَسْطَحٍ، بِمَا تَعَرَّضْتَ لَهُ أَنْتَ مِنْ ظُلْمٍ مِنْ قَرِيبِكَ - عَلَى فَرَضٍ أَنَّهُ ظَلَمَكَ حَقًّا - ؟؟.

أَفَلَا تُحِبُّ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكَ؟ فَاعْفِرْ لَصَدِيقِكَ وَسَامِحْهُ إِنْ كُنْتَ تَرِيدُ

(١) البخاري (٢٦٦١)، ومسلم (٧١٩٦).

من الله تعالى أن يغفر لك ويُسامحك، في يوم قد تندم على عدم مُسامحتك وعفوك، حين ترى جزاء العافين بأَمِّ عينك.

ولا يعني هذا ألا نُحاسب المخطئ، فقد حاسب النبي ﷺ بعضاً من الصحابة رضي الله عنهم على بعض الأخطاء والذنوب..

ولكن المحاسبة لا تعني إعلان المقاطعة، والغلظة والجفاء.

وتزادُ شناعة القطيعة إن كان بينهما رحمٌ وقرابة، والعامل يتحاشى قطيعة قريبه خشيةً غضب ربه، وسوء سمعته.

ولا أدعُ ابنَ العمِّ يَمْشي على شفاً ولو بَلَعْتَنِي مِنْ أذَاهُ الْجِنَادِ^(١)
ولكن أواسيه وأنسى ذنوبه لُتْرِجِعَهُ يَوْمًا إِلَيَّ الرَّوَاجِعِ
وأفرشهُ مالي وأحفظُ غيبه ليسمعَ أني لا أُجازيه سامعُ
وحسبُك من جهلٍ وسوءِ صنيعَةٍ مُعَادَاةُ ذِي الْقُرْبَى وَإِنْ قِيلَ قَاطِعُ

ويا سبحان الله!! على ماذا هذا الكره والتقاطع؟ على دنيا فانية حقيرة، أو زلة لسان لا يسلم منها أحد! أمالك في رسولك وحبيبك أسوة حسنة؟ أتعرف من هو عبد الله بن أبي بن سلول؟ ذلك المنافق الذي اتهم عرض رسول الله ﷺ!! اتهم زوجته عائشة بالفجور والزنا، حتى دخل الهمُّ والحزنُ كلَّ بيتٍ من بيوت المدينة، وأصاب عائشة رضي الله عنها كربٌ شديدٌ، واغتمَّ صاحب القلب الأبيض رضي الله عنه غمًّا شديدًا، حتى برأ الله عائشة من فوق سبع سموات، وهو الذي قال مرةً: «ليخرجن الأعز» منها؛ يعني: نفسه، الأذل؛ يعني: رسول الله، وما زال أذاه في رسول الله وأصحابه وعرضه حتى داهمه الموت، فجاء ابنه عبد الله بن عبد الله فقال: يا رسول الله أعطني قميصك أكفنه فيه، وصلِّ عليه، واستغفر له،

(١) الجنادة: الدَّوَاهِي والمصائب والبلايا.

فأعطاه صاحب القلب الأبيض الطاهر قميصه وقال له: آذني أصلي عليه، فلما قام رسول الله ﷺ وثب إليه عمر رضي الله عنه فقال: يا رسول الله أتصلي على ابن أبي وقد قال يوم كذا: كذا وكذا، يعدد عليه قوله. فتبسم رسول الله ﷺ وقال: «أخر عني يا عمر».

فقال عمر: أما قال الله تعالى: ﴿إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٨٠]؟

فقال: إني خيَّرت فاخترت لو أعلم أنني إن زدت على السبعين عُفِرَ له: لزدت عليها.

فصلى عليه رسول الله ﷺ فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا تَصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُمْ مَّتَّ أَبَدًا﴾ [التوبة: ٨٤].

الله أكبر! ما أعظم قلب رسول الله وما أطهر فؤاده، مع كل ما فعله واقترفه هذا المنافق، وهو ليس بمسلم ذي سُمعةٍ حسنةٍ ولا قريب، ولكنه محسوبٌ من عدادِ المُسلمين في الظاهر، إلا أنه عليه الصلاة والسلام ما هجره وما قطعه، بل صلى عليه وكفنه بقميصه واستغفر له.

وعندما دخل نبيُّ الله ﷺ مكة فاتحاً مُنتصراً ووقفت أمامه جموعٌ من قريشٍ أذلةٌ صاغرين، وبعضهم قد كان آذى رسول الله آذىً شديداً، فمنهم من قد سبه وشتمه، ومنهم من اتهمه بالسحر والشعوذة، ومنهم من ضربه وضرب أصحابه، فقال لهم: ما تظنون أنني فاعل بكم؟ فقالوا: أخ كريم وابن أخ كريم، فقال قولته الشهيرة: «اذهبوا فأنتم الطلقاء».

قال شيخ الإسلام رحمه الله: فإذا كان هذا خيرَ خلق الله وأكرمهم على الله لم ينتقم لنفسه، مع أن أذاه آذى الله^(١)، ويتعلق به حقوق

(١) أي: أن من يؤذي رسول الله فقد آذى الله تعالى، وفي بعض النسخ: لله، ولعل المُثبت هو الصواب.

الدين، ونفسه أشرف الأنفس وأزكاها وأبرها، وأبعدها من كل خلقٍ مذموم، وأحقها بكل خلقٍ جميلٍ، ومع هذا فلم يكن ينتقم لها، فكيف ينتقم أحدنا لنفسه التي هو أعلم بها وبما فيها من الشرور والعيوب؟، بل الرجل العارف لا تُساوي نفسه عنده أن ينتقم لها، ولا قدر لها عنده يُوجب عليه انتصاره لها^(١). ا.هـ.

وها هو يوسف عليه السلام، ألقاه إخوته في الحب بعد أن تآمروا على قتله، وفرقوا بينه وبين أبيه وأهله أربعين سنة - كما قيل -، ذاق خلالها مرارة العبودية والسجن والظلم، فلما رفع الله من شأنه وأصبح عزيز مصر والتقى بإخوته وقالوا له: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ ءَاتَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخٰطِئِينَ ﴿٩١﴾﴾ [يوسف: ٩١] فيماذا ردّ عليهم؟ قال لهم: ﴿لَا تَثْرِيْبَ عَلَيْنُكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّحِمِينَ ﴿٩٢﴾﴾ [يوسف: ٩٢] فلم يُذكّرهم بالماضي ولا حتى عاتبهم، بل سامحهم ودعا لهم.

فبادر بطلب الصلح والعفو من صاحبك وقريبك، قف أمامه واطلب منه المُسامحة ونسيان الماضي، قبل أن تقف أمام الحُكم العدل سبحانه، فلا مجال للصلح حينها، ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكُنَّا بِبَنَاتِ حَسْبِيْنَ ﴿٤٧﴾﴾ [الأنبياء: ٤٧]، إنما هي الدقة في الحساب، وسيحاسبك على أمورٍ عملتها أو قلتها لصاحبك لم يخطر ببالك أن تُحاسبَ عليها، ويؤفّنك على أمورٍ كنتَ تظنُّ أنك المحقُّ فيها، فإذا بك تكون الظالم المُعتدي، فتتقطّع حسرةً وندماً على عدم صلحك معه في الدنيا.

فها هو السجل بيدك اليوم، فإن أردت ألا يُفتح يوم القيامة فبادر بطلب الصلح والعفو، واحذر أن تأخذك العزة بالإثم.

(١) جامع المسائل لابن تيمية ١/١٧١.

وقد عدَّ كثيرٌ من العلماء التقاطع من الكبائر .
ومن أعظم الوسائل في زهاب الكراهية من القلب: الدعاء بظهر
الغيب لمن تُبغض، فإنه على ما فيه من الأجر العظيم، إلا أنه لا يلبث
الداعي لأخيه مع الأيام، حتى يخف ما يجده في قلبه تجاهه .



متى تُسْتَعْمَلُ الشَّدَّةُ مع زَلَّاتِ الأَصْدِقَاءِ وغيرهم؟

اعلم - أيها الصديق المُبارك - أنَّ الزلزل والخطأ الواقع عليك من أصدقائك وغيرهم لا يخلو من إحدى ثلاث حالات:

الحالة الأولى: أن يأتي من صديقٍ أو قريبٍ صالحٍ وفيّ، حصلت منه زلَّةٌ أو كبوَّةٌ لا يخلو منها أحدٌ من البشر.

فهذا الذي أجمع على مُسامحته العقلاء، واتفق على التجاوزِ عنه الحكماء، ولم يختلف في استجابِ عذره العلماء.

وما تقدم من النقولات والحكم والأشعار إنما تعني من هذه حاله بالمقام الأول.

والذي لا يتجاوز ويعفو عنه فلا يستحقُّ أن يكون صديقًا، وليس له في الوفاء أيّ نصيب.

وصدق القائل^(١):

إذا ما الصديقُ أسَا مَرَّةً وقد كان من قَبْلِهَا مُجْمِلًا
حَفِظْتُ المُقَدَّمَ من فعله ولم يُفسدِ الآخرُ الأَوَّلَا

الحالة الثانية: أن يأتي من صديقٍ أو قريبٍ صالحٍ وفيّ، تكررت منه الزلَّةُ، ولم تكن كثيرةً أو شنيعةً، ففضائله تَطَعَى على ذنوبه، ومحاسنُه تَعْلُو على مساويه، فهذا اختلف الحكماء والعقلاء فيه على قولين لا ثالث لهما:

(١) محاضرات الأدباء للراغب الأصفهاني ١/٣٣٣.

القول الأول: أن يُعامَل كما يُعامَل الأول.

القول الثاني: أن يُعتَاب عتابًا رقيقًا رقيقًا كما تقدم في النوع الأول من عتاب الصديق.

وكلا القولين سائغ، والعمل بأيّهما جائز.

وقد أجاد أحد الشعراء في علاج من هذه حاله فقال^(١):

إذا كثرت ذنوبٌ من خليلٍ	فَقِفْهُ بَيْنَ وَصَلٍ واجتناب
وَأَنْظِرْهُ فَلِأَيَّامِ حُكْمٍ	بِذَلِكَ كُلِّ مَاضِي العزمِ آبِ
وَعَاتِبْهُ فكم أَبْدَى عتابٌ	جَلِيَّةٌ مُشْكَلٍ بعد ارتياب
وَرَجَّ النفعَ في الإعراض عنه	إذا أَحْفَقْتَ من نفعِ العتاب
وراجعه بعفوك حين يثني	عِنَانًا للرجوع أو الإياب
فإنَّ العفو عن ذي الحزم أولى	إذا قَدَرْتَ يدَاكَ على العتاب
فإنك واجدٌ للحيِّ ذنبًا	وتَعْدِمُ ذنبَ مَنْ تحت التراب

الحالة الثالثة: أن يأتي من صديق أو قريب صالح أو طالح، كثرت زلّاته، وتوالت أخطاؤه، أو كان الخطأ شنيعًا مُقْدَعًا، فيه تجاوزٌ على الشريعة، وجُرأةٌ على الملة، فهذا ممّا لا خلاف فيه بين أحدٍ بتأكد رده، واستحباب أو وجوب زجره، حتى لا يتمادى على العباد، أو يستهين بالله تعالى ودينه.

فصاحب الفسق والفجور، أو المصّر على هضم حقوق الأصدقاء والأقارب، يجب أن يُردّ عليه ويُؤدّب، وبفرقٍ مهما أمكن في بادئ الأمر، فإنّ تمادى فبالشدة والحدّة.

(١) الصداقة والصديق، ص ١٧٧.

وممَّا لَا يُحْتَمَلُ مِنَ الصَّدِيقِ تَعَمُّدُ الْإِذْلَالِ وَالْهَوَانِ، كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ (١) :

سَأَصْبِرُ مِنْ صَدِيقِي إِنْ جَفَانِي عَلَى كُلِّ الْأَذَى إِلَّا الْهَوَانَا
وَاللَّهُ تَعَالَى اشْتَرَطَ لِمَنْ عَفَى أَنْ يَتَحَقَّقَ فِي عَفْوِهِ الْإِصْلَاحَ فَقَالَ:
﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ قَالَ السَّعْدِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: وَشَرَطَ اللَّهُ فِي الْعَفْوِ
الْإِصْلَاحَ فِيهِ، لِيَدُلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّهُ إِذَا كَانَ الْجَانِي لَا يَلِيقُ الْعَفْوَ عَنْهُ،
وَكَانَتِ الْمَصْلُحَةُ الشَّرْعِيَّةُ تَقْتَضِي عَقُوبَتَهُ، فَإِنَّهُ فِي هَذِهِ الْحَالِ لَا يَكُونُ
مَأْمُورًا بِهِ (٢). ١٠١ هـ.

وَبَعْضُ النَّاسِ لِفَسَادِ طِبَاعِهِمْ قَدْ يُفْسِدُهُمُ التَّسَامُحُ وَالتَّبَسُّطُ، وَقَدْ
يُجْرَوُهُمْ حَسَنُ الْخُلُقِ مَعَهُمْ، كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ (٣) :

أَضْرَبِي حَسَنُ خُلُقِي عِنْدَ عِشْرَتِهِ وَرَبِمَا ضَرَّ حَسَنُ الْخُلُقِ أَحْيَانًا
قَالَ ابْنُ حَزْمٍ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي أَمْثَالِ هَؤُلَاءِ: مَسَامِحَةُ أَهْلِ الْاِسْتِثْنَاءِ (٤)
وَالِاسْتِغْنَامِ (٥) وَالتَّغَافُلِ (٦) لَيْسَ مَرْوُوعًا وَلَا فَضِيلَةً، بَلْ هُوَ مَهَانَةٌ وَضَعْفٌ

(١) بهجة المجالس وأنس المجالس لابن عبد البر، ص ١٥٠.

(٢) تفسير السعدي ٧٦٠/١.

(٣) الصداقة والصديق، ص ٢٠٤.

(٤) هم الذين يستأثرون على أصحابهم، ويستبدون بالأشياء دون غيرهم، ويأخذون
الأجود والأحسن، ويتركون التالف ونحوه لغيرهم.

(٥) لم أجد في كتب اللغة أصلاً لهذا التصريف، ولعل الاستغنام مأخوذ من اغتتم
الشيء؛ أي: عدّه غنيمَةً وانتهز غنمته، قال في المعجم الوسيط ٦٦٤/٢: تغنم الشيء
اغتنمه، يُقال: فلانٌ يتغنم الأمر يحرص عليه كما يحرص على الغنيمة.

فأهل الاستغنام: هم الجشعون الحريصون حرصاً مُفرطاً، ولا يُبالون في أصحابهم في
سبيل نيل رغباتهم.

(٦) العَفْلَةُ: فَقَدُ الشُّعُورِ بِمَا حَقُّهُ أَنْ يُشْعَرَ بِهِ، وَالذُّهُولُ عَنِ الشَّيْءِ، وَقَالَ الرَّاعِبُ: هُوَ
سَهْوٌ يَعْتَرِي مِنَ قَلَةِ التَّحْفِظِ وَالتَّبَيُّظِ، وَقِيلَ: مَتَابَعَةُ النَّفْسِ عَلَى مَا تَشْتَهِيهِ. وَالتَّغَافُلُ:
تَعَمُّدُ الْعَفْلَةِ. تاج العروس ١٠٩/٢٠.

وتغرية لهم على التمادي على ذلك الخلق المذموم، وعون لهم على فعل ذلك السوء؛ وإنما تكون المسامحة مروءة لأهل الإنصاف المبادرين إلى المسامحة والإيثار، فهؤلاء فرضٌ على أهل الفضل أن يعاملوهم بمثل ذلك، لا سيما إن كانت حاجتهم أمس وضرورتهم أشد. ١. هـ^(١).

تأمل قوله: مسامحة أهل الاستئثار والاستغنام والتغافل.. مما يعني أنهم ممن اتصف بهذه الصفات الرديئة، لا من تكون زلته زلة طارئة.

وكذلك تكرار الخطأ والزلل لا يُحتمل ممن لا يحمل المودة الصادقة لصاحبه، إنما هي صداقة لمصلحة أو حاجة.

قال أبو حيان التوحيدي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «ونحن لم نُخَالِفْ فِي مَا عَمَّمْنَا بِهِ قَوْلَ النَّابِغَةِ:

ولست بمستبِقٍ أحمًا لا تلمهُ
على شعثٍ أي الرجال المهذب
وقال آخر:

وكنت إذا الصديق أراد غيظي
وأشرقني على حنقٍ بريقي
عفوت ذنوبه وصفحته عنه
مخافة أن أعيش بلا صديق

هؤلاء إنما أوجبوا الإغضاء والاحتمال والصبر والكظم مع سلامة الإخاء، وإنما وقفوا بالصفح والعفو على ما يخلو الإنسان يأنس به من مثله، ألا ترى النابغة يقول:

= وهذا خلقٌ ذميمٌ يكون عند بعض الصحاب، حيث لا يُراعي اهتمامًا بما يُصيب صديقه، ويتظاهر بأنه لم يعلم به، وقد يراه وهو في مُصيبَةٍ عظيمة، فيمضي وكأنه لم يره.

وهذا بخلاف التغافل المحمود، وهو التغافل عن زلات الصديق وكبواته.

(١) رسائل ابن حزم، ص ٣٦٤ - ٣٦٥.

أيُّ الرجال المَهذب؟

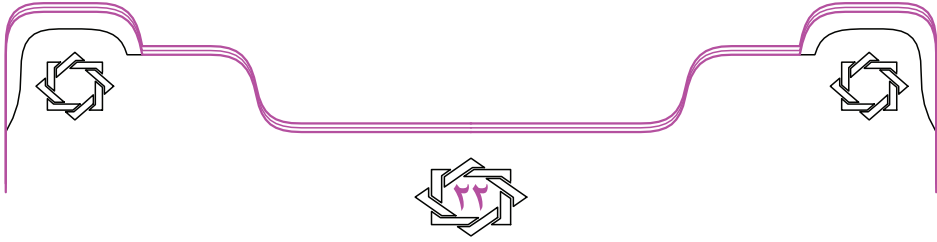
والآخر يقول:

مخافة أن أعيش بلا صديق

نقول كما قالوا، ونغفر كما غفروا لو وجدنا من يَسَلِّمُ لنا جُمْلَةَ
إخائه، وإنما نشكو فَقَدْ عَمُود الإخاء الذي حُصُولُهُ يغفر ما دونه»^(١).



(١) الصداقة والصديق، ص ٤٢٢ - ٤٢٤.



الإصلاح والسعي في تأليف القلوب

إصلاح ذات البين، والحرص على لَمَّ شمل المُتقَاتِعِينَ، وتقريب وجهات النظر من أعظم حقوق الصديق على صديقه، وهو من أعظم الأعمال عند الله تعالى.

أخرج الإمام أحمد^(١) وأبو داود^(٢) والترمذي^(٣) من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «ألا أخبركم بأفضل من درجة الصلاة والصيام والصدقة؟» قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «صلاح ذات البين؛ فإن فساد ذات البين هي الحالقة».

رُجِعَتْ بِجُمْلَتِهَا إِلَى شَيْئَيْنِ
تَعْظِيمُ أَمْرِ اللَّهِ جَلَّ جلاله وَالسَّعْيُ فِي إِصْلَاحِ ذَاتِ الْبَيْنِ
فهذا العمل العظيم أفضل من درجة الصلاة والصيام والصدقة المستحبة!، فيا سبحان الله! ما أزهّد الكثير من الناس بهذا الأجر العظيم!

وقد رَغِبَ اللهُ فِي الإِصْلَاحِ بَيْنَ الْمُتَخَاصِمِينَ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّنْ نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾

(١) في مسنده ٦/٤٤٤.

(٢) في سننه (٤٩١٩).

(٣) في جامعه (٢٥٠٩)، وقال: «حسن صحيح».

وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾
[النساء: ١١٤].

أما أن يكون الصديق ضمن مجموعة من الأصدقاء، فيحصل بين اثنين منهم خصومة وتقاطع، ثم لا يحرك ساكنًا: فليس هذا من أخلاق الصديق الوفي، وخاصة إذا ترك أحدهم المجموعة برمتها بسبب خصامه مع صديقه.

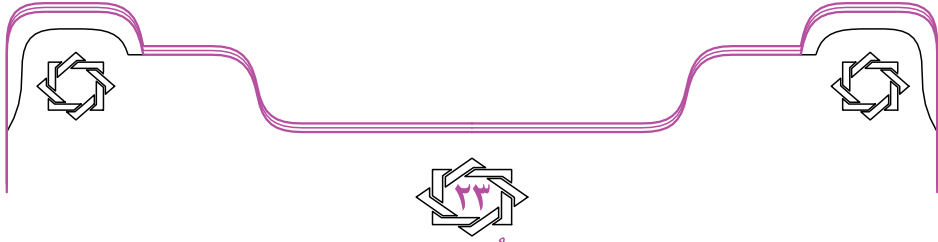
ومن أهم الأمور عند حدوث مشكلة بين الأصدقاء، أن يُبادر الجميع إلى احتوائها، وعدم تركها تتراكم وتتفاقم، وإذا لم يُبادرُوا إلى ذلك، فسوف تحدث القطيعة والفرقة والبغضاء غالبًا.

ولا بد لأي مجموعة من الأصدقاء أن يُعيّنوا مجموعة أو أفرادًا منهم، يَحْتَكِمُونَ إليهم عند النزاعات والخلافات الصغيرة والكبيرة، ويرضون بما يحكمون ويقضون به.

ومن أهم الأمور للحكم والمُصلح ألا يستمع لطرف واحد مهما كان صدقه وأمانته، بل لا بد أن يستمع من الطرفين جميعًا، لتتضح الصورة، ويسلم من الجور والظلم.

بل يُحضرهم جميعًا وجهًا لوجه، ويسمع كل واحدٍ لوجهة نظر الآخر، فستتضح أمور كثيرة كانت غائبة عنهم قبل المواجهة.





الاعتذار إليه واستِعْطَافُهُ عندَ خطئِكَ وتقصيرِكَ

كَمْ هُمُ الَّذِينَ تَبَدَّرُ مِنْهُمْ زَلَّةٌ أَوْ تَقْصِيرٌ مَعَ أَصْدِقَائِهِمْ، فَلَا يُسَارِعُونَ فِي الْعِذَارِ إِلَيْهِمْ، وَتَطْيِيبِ خَوَاطِرِهِمْ.

عَوَّدَ نَفْسَكَ أَنْ تَقُولَ: آسَفُ، أَعْتَذِرُ عَنْ خَطِيئِي، أَقْرُبُ بِأَنِّي مُخْطِئٌ، وَهَكَذَا، فَإِنَّ الْعِذَارَ يُزِيلُ مَا فِي الْقَلْبِ مِنْ ضَعْفِيَّةٍ، وَيَغْسِلُ مَا أَلَمَّ بِهِ مِنَ أَلَمٍ.

بَلْ هُوَ يُؤَثِّرُ حَتَّى عَلَى الطَّغَاةِ وَالْمُلُوكِ، فَهَذَا أَحَدُ الْمُلُوكِ يَأْمُرُ بِقَتْلِ رَجُلٍ غَضِبَ عَلَيْهِ، فَقَالَ الرَّجُلُ: أَيُّهَا الْمَلِكُ، إِنَّ قَتَلْتَنِي وَأَنَا صَادِقٌ عَظِيمٌ جُرْمِكَ، وَإِنْ تَرَكْتَنِي وَأَنَا كَاذِبٌ قَلٌّ وَرُزُّكَ، وَأَنْتَ مِنْ وِرَاءِ مَا تُرِيدُ، فَعَفَا عَنْهُ (١).

«الاعتذارُ يُذْهِبُ الْهَمُومَ، وَيُجَلِّي الْأَحْزَانَ، وَيَدْفَعُ الْحَقْدَ، وَيُذْهِبُ الصَّدَّ، فَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِي عِذَارِ الْمَرْءِ إِلَى أَخِيهِ خِصْلَةٌ تُحْمَدُ إِلَّا نَفْيُ الْعُجْبِ عَنِ النَّفْسِ فِي الْحَالِ لَكَانَ الْوَاجِبَ عَلَى الْعَاقِلِ أَلَّا يَفَارِقَهُ الْعِذَارَ عِنْدَ كُلِّ زَلَّةٍ» (٢).

وَمِمَّا يَنْبَغِي تَجَنُّبُهُ عِنْدَ الْعِذَارِ: عَدَمُ التَّصْرِيحِ وَالْوَضُوحِ بِطَلَبِ الْمَسَامِحَةِ وَالْعِذْرِ، فَبَعْضُهُمْ رَبَّمَا يَقُولُ: يَا فَلَانُ، إِنَّ كُنْتُ أَخْطَأْتُ فَأَنَا

(١) التذكرة الحمدونية ٤٥٥/١.

(٢) روضة العقلاء، ص ١٦٩.

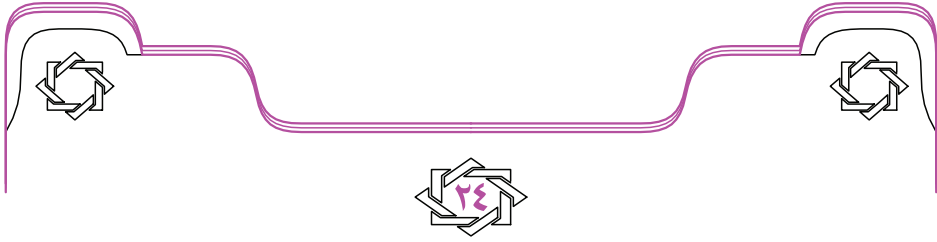
بشرُّ أخطئ وأُصيب!، وبعضُهُم يُرسل رسالةً يقول فيها: إلى كلِّ من ظلمتُه أو أخطأتُ في حقِّه أرجو مسامحتي، فأنا قد سامحتُ كلَّ أحد!! وهذا كلُّه لا يُسمى اعتذارًا ولا رجوعًا عن الخطأ، بل هو بغيضٌ ثقيلٌ.

قال بعض السلف: رَبِّ ذَنْبٍ أَحْسَنُ مِنَ الْعِذَارِ مِنْهُ؛
وَصَدَقَ رَحْمَةُ اللَّهِ (١).

إِذَا كَانَ وَجْهُ الْعِذْرِ لَيْسَ بِوَاضِحٍ فَإِنَّ أَطْرَاحَ الْعُذْرِ خَيْرٌ مِنَ الْعِذْرِ



(١) التذكرة الحمدونية ٤٥٦/١.



عَدْمُ مُجَامَلَتِهِ، وَمِرَاعَاةُ مَشَاعِرِهِ دَائِمًا

لا ينبغي للصديق التكلف في المجاملة، ومراعاة مشاعر صديقه؛ لأن ذلك يفسده، حيث سيستمر في خطئه وغيته.

والمُجَامَلَةُ: هي حُسْنُ العِشْرَةِ، والمُصَانَعَةُ واللِّينُ، واللفظ في الكلام.

يُقال: جَامَلَهُ بِكَلَامٍ عَذْبٍ: أَسْمَعَهُ كَلَامًا جَمِيلًا فِيهِ كَثِيرٌ مِنَ الاحْتِرَامِ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ مُخْلِصًا فِي كَلَامِهِ. وهي ضد المصارحة.

قال أهل اللغة: جاملتُ فلانًا مُجَامَلَةً، إذا لم تُصِفْ له المودَّةَ، وما سَحَّتَه بِالْجَمِيلِ^(١).

فالمجاملة بين الأصدقاء دليلٌ على ضعفِ المحبة والمودَّةِ بينهم، وإلا لَمَا جامل بعضهم بعضًا على كلِّ حال، ولَمَا سكتوا عن أخطاءٍ وعيوب بعضهم؛ لأنَّ المُحِبَّ النَّاصِحَ لا يرضى لصديقه أن يكون فيه عيوبٌ ثم لا يُنبِّهه عليها.

وتسود المجاملة بين الأصدقاء إذا كان بينهم خوفٌ من أن يغضب أحدهم إذا نُقِدَ أو عُرِّفَ بسلوكٍ أو عملٍ خاطئ، ولو كانت المحبة والثقة موجودةً لَمَا وُجد هذا الخوف.

(١) تهذيب اللغة للأزهري ٧٦/١١.

والكثير من الناس يتكلّف المجاملة إلى حدّ يصل فيه إلى إحراج نفسه، والمُداهنة في دينه، والتنازل عن حقوقه .

فربما ارتكب الصديقُ حماقةً أو تصرفاً سيئاً في حقّه، أو في حقّ بعض الناس، فيُجامله خشيةً أن يُغضبَه، أو يأخذَ في خاطره، فهذه المجاملة أضرتّ بهما جميعاً، أضرتّ بالأول حيث لم يجد من يردعه فيتمادى في خطئه وتصرفه السيئ .

وأضرتّ بالآخر حيث اعتدى عليه، أو أخذ بعض حقّه . بل ويتعدّى الضرر إلى غيرهما، حيث سيكرر خطأه مع كلِّ أحد . ومن جاملٍ صاحبه فلم يُخبره بعيبه فقد غشّه، وأضرّ به ضرراً بالغاً .

وقد رمى بك في تيهاء مهلكةٍ من بات يكتمك العيب الذي فيكا فيجب على الصديق ألا يُجامل صديقه إذا أخطأ خطأً فادحاً . ولا يعني ذلك المُبالغة في الصراحة، بل ينبغي تجنّب التصريح في موضع يُغني عنه التلميح .

والصدعُ بالحق لا يعني التصريح دائماً، بل إنَّ الحكيم العاقل : هو الذي يقول كلمة الحق، بلا مفسدٍ يُنتج عنها .

والمتهورُ المُندفع : هو الذي يُطلق التصريح في أمرٍ يُغني عنه التلميح، وخاصةً إذا ترتب على تصريحه ما يُسبب فرقةً، ويُحمل كلامه على أسوأ محمل .

قال الجرجاني رَضِيَ اللهُ عَنْهُ : أجمعَ الجميعُ على أن الكنايةَ أبلغُ من الإفصاح، والتعريضُ أوقعُ من التصريح .^(١)

(١) دلائل الإعجاز، ص ١١٣ .

وإنَّ لنا في رسولِ اللهِ ﷺ أسوةً حسنةً، فقد كان كثيرًا ما يُلمِّحُ ولا يُصرحُ، وذلك لأنه يُريد أن يُؤلفَ بين القلوب، لا أن يفضحَ ويتشفَّى بذكرِ العيوبِ.

تقول عائشةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: كان رسولُ اللهِ ﷺ، إذا بلغه عن الرجل شيئًا لم يقل: ما بال فلانٍ يقول كذا؟ ولكن يقول: ما بال أقوامٍ يقولون كذا وكذا؟^(١).

هكذا كان ﷺ يقول عندما يرى خطأ صريحًا.

فمن الخطأ أن نعتقد أنَّ الشجاعة المحموده: هي في التصريح دائمًا، والكلام عن كلِّ شيء، ولو ترتب على ذلك مضرَّة للقاء أو لغيره.

فهذا أبو هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يقول: حَفِظْتُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَعَاءَيْنِ - أَي نَوْعَيْنِ مِنَ الْعِلْمِ -، فَأَمَّا أَحَدُهُمَا فَبَشَّتُهُ، وَأَمَّا الْآخَرُ فَلَوْ بَشَّتُهُ قُطِعَ هَذَا الْبُلْعُومُ. رواه البخاري^(٢).



(١) رواه أبو داود (٤٧٨٨)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود.

(٢) (١٢٠).



ألا يستمع للنمام، وأن يُلجمه ويُدافع عن صديقه

هذا من أهم ما يجب على كل عاقلٍ فضلاً عن الصديق الناصح أن يقوم به، وإلا فسد دينه، وانثلمتُ صُحبته، وكُرِهتُ معرفته.

ولنستمع إلى هذه الوصية البليغة من الإمام الشافعي رحمته الله: إذا بلغك عن صديق لك ما تكرهه، فإياك أن تبادره بالعداوة وقطع الولاية، فتكون ممن أزال يقينه بشك، ولكن ألقه وقل له: بلغني عنك كذا وكذا، واحذر أن تسمي له المبلغ، فإن أنكر ذلك فقل له: أنت أصدق وأبر، لا تزيدنَّ على ذلك شيئاً، وإن اعترف بذلك فرأيت له في ذلك وجهاً لعذر، فاقبل منه، وإن لم تر ذلك فقل له: ماذا أردت بما بلغني عنك؟ فإن ذكر ما له وجهٌ من العذر فاقبل منه، وإن لم تر لذلك وجهاً لعذرٍ وضاق عليك المسلك، فحينئذ أثبتتها عليه سيئة، ثم أنت في ذلك بالخيار: إن شئت كافأته بمثلها من غير زيادة، ولا تبخسن باقي إحسانه السالف بهذه السيئة؛ فإن ذلك الظلم بعينه، وإن شئت عفوت عنه، والعتو أقرب للتعوى وأبلغ في الكرم؛ لقول الله تعالى: ﴿وَحَرِّزُوا سَيِّئَةَ سَيِّئَةٍ مِّثْلَهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠] (١).

ومعنى النميمة: هي نقل الكلام بقصد الإفساد، تقول: فلان كان يتكلم فيك بكذا وكذا.

(١) صفة الصفة ٥٥٣/٢.

وحقيقة النميمة: إفشاء السر، وهتك الستر عما يُكره كشفه.

ويا من حُمِلتُ إليك النميمة، وقيل لك: إن فلاناً قال فيك كذا وكذا، سمعتُ صاحبك فلاناً يقول عنك كذا وكذا، فيجب عليك تجاه هذا المنام - مهما كان ثقةً عندك - عدّة أمور:

أولاً: ألا تُصدقه؛ لأن المنام فاسق، قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ جَاءَكَ فَاسِقُ نَبَلٍ فَتَيْبِنُوا أَلَّا تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ﴾ [الحجرات: ٦].

ومن يطع الواشين لا يتركوا له صديقاً وإن كان الحبيب المُقرباً **ثانياً:** أن تزجره عن ذلك وتنصحه، وتُقبَح له فعله وتُشنع عليه عمله السيئ.

ثالثاً: أن تُبغضه في الله تعالى إن لم ينزجر.

رابعاً: ألا تظن بأخيك السوء، لقوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَجْتَبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحجرات: ١٢].

خامساً: ألا ترضى لنفسك ما نهيت عنه المنام، ولا تحك نميتمه فتقول: قد حكى لي كذا وكذا، فتكون به ناماً ومغتاباً.

بل ينبغي لك أن تُقابل الصديق الذي جاءك كلامٌ عنه، وتقول له: يا فلان، لقد سمعت أنك تقول عني كذا وكذا، وأنا لا أصدق ذلك أبداً، فأنا أثق بك ولا أثق بمن نقل لي هذا الكلام، ولكن ليطمئن قلبي.

واحذر أن تقول لمن نقل لك كلاماً عن أحد: بأنه ثقةٌ عندي، فلو كان ثقةً ما عصى الله بنقل الكلام.

عاتب مُصعب بن الزبير الأحنف بن قيس رحمهما الله على شيءٍ بلغه عنه، فاعتذر إليه الأحنف من ذلك ودفعه: فقال مُصعب: أخبرني

بذلك التُّقَّةُ: فقال الأحنفُ: كَلَّا أيها الأميرُ، إن الثقة لا يُبلِّغُ^(١).

إذا الواشي نَعَى يوماً صديقاً فلا تدع الصديق لقول واشي
والنمام من أكثر الناس فساداً وضرراً.

قال يحيى بن أبي كثير رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: يفسد النمام في ساعة، ما لا يفسد
الساحر في شهر^(٢).

واعلم - أيها الصديق - أن مَنْ نقل لك كلاماً عن صديقك، فقد
ينقل لصديقك أو لغيره كلاماً عنك لا ترضاه، فاحذرْ أنْ تَأْتِمِنَ النَّمَامَ.

مَنْ نَمَّ فِي النَّاسِ لَمْ تُؤْمَنْ عَقَابُهُ عَلَى الصَّدِيقِ وَلَمْ تُؤْمَنْ أَفَاعِيهِ
«ولا بد لِمَنْ عُرِفَ بِهَا، وَنُسِبَ إِلَى مَقَارِفَتِهَا، مِنْ أَنْ يُحْتَرَسَ
مِنْ مُجَالَسَتِهِ، وَأَلَا يُوثَقَ بِمَوَدَّتِهِ، وَأَنْ يُزْهَدَ فِي مُوَاصَلَتِهِ
ومعاشرتِهِ»^(٣).

وكذلك يجب على الصديق ألا ينقل لصديقه كلاماً - لا ينبغي -
قاله أحد الأصدقاء عنه، بل يجب أن يُنَاصِحَهُ وَيُحذِرَهُ مِنَ الْغِيْبَةِ، وَأَنْ
يسعى للإصلاح دون أن يشعر الصديق الآخر بأن صديقه الفلاني قال عنه
كذا وكذا.

وليستحضر وَعِيْدَ النَّبِيِّ ﷺ للنمام بالحرمان من الجنة حيث قال:
«لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ نَمَامٌ». متفق عليه^(٤).

فنقل الكلام لا يجوز شرعاً ولا عقلاً ولا مُروءةً، إلا إذا كان
لمصلحة راجحة، كأن تُحذِرَ صديقك من صديقه الفلاني، حيث ثبت أنه

(١) عيون الأخبار ٢/٤١٧.

(٢) الحلية (تهذيبه) ١/٤٥٦.

(٣) روضة العقلاء، ص ١٦٠.

(٤) البخاري (٦٠٥٦)، ومسلم (١٠٥).

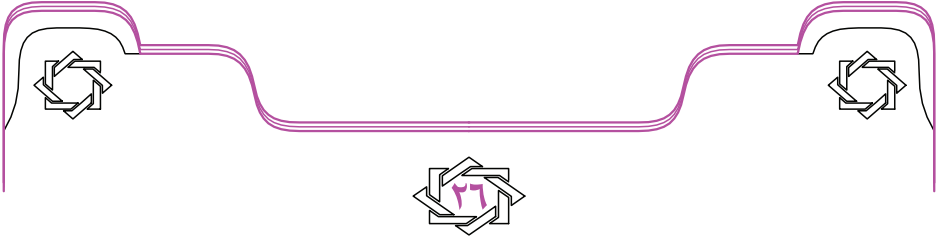
فاجرٌ فاسد، فهنا يجوز بل يجب أن تُحذره منه، وتنقل له ما شاهدته منه .

قَالَ النَّوَوِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: «وَهَذَا كُلُّهُ إِذَا لَمْ يَكُنْ فِي النَّقْلِ مَصْلَحَةٌ شَرْعِيَّةٌ، وَإِلَّا فَهِيَ مُسْتَحَبَّةٌ أَوْ وَاجِبَةٌ، كَمَنْ إِطْلَعَ مِنْ شَخْصٍ أَنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُؤْذِيَ شَخْصًا ظُلْمًا، فَحَذَرَهُ مِنْهُ، وَكَذَا مَنْ أَخْبَرَ الْإِمَامَ أَوْ مَنْ لَهُ وِلَايَةٌ بِسِيرَةٍ نَائِبِهِ مَثَلًا، فَلَا مَنَعَ مِنْ ذَلِكَ»^(١).

وحفظُ عرض صديقك من أعظم حقوقه، والدفاع عنه ممن يغتابه أو يتنقَّضه، أما أن ترى أحدًا يتهجم عليه دون وجه حقٍّ ثم تسكت أو تُداهن، فهذا لا يليق بالصديق أبدًا.



(١) شرح النووي لمسلم ٥٨١/١٠.



أَنْ تَحْفَظَ أَسْرَارَهُ، وَتَكْتُمَ مَا طَلَبَ مِنْكَ كِتْمَانَهُ

من أعظم الأمانة: حفظ السر، ومن أعظم الخيانة: نشر السر، وما أودع الصديق سره لصديقه إلا حينما اتّمنه وراه محلاً للثقة، فهل يليق به أن يخونه ويضره؟.

إذا ما حَلِيلِي حَانَنِي وَاتَّمَنْتُهُ فذَاكَ وَدَاعِيهِ وَذَاكَ وَدَاعِهَا
رَدَدْتُ عَلَيْهِ وُدَّهُ وَتَرَكْتُهُ مُطَلَّقَةً لَا يُسْتَطَاعُ رِجَاعُهَا

لتكن - أيها الصديق - كما قال الشاعر الحكيم (١):

فإن ضيِّعَ الإخْوانُ سِرِّي فإِنِّي كَتُمُ لَأَسْرَارِ الصَّديقِ أَمِينُ
يكون له عندي إذا ما اتَّهَمْتُهُ مَكَانُ بِسُودَاءِ الفُؤَادِ مَكِينُ

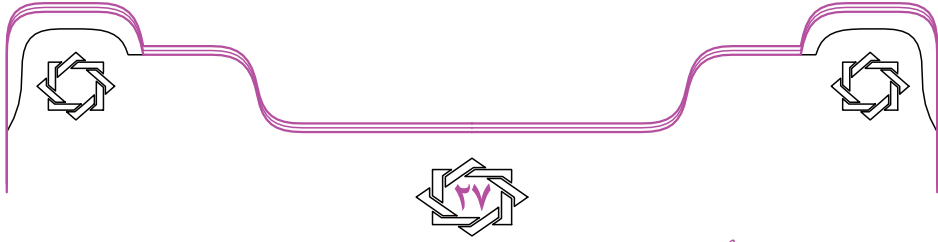
ولا بد للصديق أن يبوح بأسراره لصديقه، ويكشف له عن دقائق حياته كما قال الشاعر (٢):

ولا بُدَّ من شَكْوَى إِلَى ذِي مُرْوَةِ يُوَأْسِيكَ أَوْ يُسْلِيكَ أَوْ يَتَوَجَّعُ
فلا يليق بذي المروءة أن يُذيع أسرار صديقه، ويُشيع خواصَّ حياته، ويستتهين بكلامٍ خصَّه به دون غيره.



(١) الصداقة والصديق، ص ٣١٨.

(٢) ديوان بشار بن برد، ص ٩١٤.



مُخَاطَبَتُهُ بِالطَّفِ الْعِبَارَاتِ، وَإِخْبَارِهِ بِمَشَاعِرِكَ

لا بدّ للصديق أن يتلطف مع أصدقائه بالكلام اللين الرقيق، وأن يتعد عن الكلمات النابية القاسية، وأن يُجاملهم بما لا محذور فيه .

فقل لصديقك: إني أحبك يا فلان، قل مرّةً: كم أعجبني فيك هذا التصرف الجميل، أسمع هذه العبارة: لقد أسعدتني وشرحت صدري بقولك كذا، أو بفعلك كذا .

كم جذبت هذه العبارات العذبة قلوباً نافرةً، وكم أسعدت أفئدةً جامحةً، وكم لها من الأثر الكبير في دوام الصحبة وتقويتها .

وبالمقابل: كم شتت الكلام القاسي والعبارات الفظة الغليظة من أصدقاء، وكم فرقت من أحبابٍ أوفياء، ويا سبحان الله، ماذا يضر هؤلاء لو استخدموا الكلمات الهينة اللينة، فتشرح بسببها الصدور، ويصفو الود، وتسود المحبة والألفة؟ .

وقد أرشدنا ربنا إلى ذلك فقال: ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ [الإسراء: ٥٣] .

قال ابن كثير رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «يأمر تبارك وتعالى عبده ورسوله ﷺ أن يأمر عباد الله المؤمنين أن يقولوا في مخاطبتهم ومحاورتهم الكلام الأحسن والكلمة الطيبة، فإنهم إن لم يفعلوا ذلك، نزغ الشيطان بينهم، وأخرج

الكلام إلى الفعال، وأوقع الشر والمخاصمة والمقاتلة، فإنه عدو لآدم وذريته من حين امتنع عن السجود لآدم، وعداوته ظاهرة بينة». ا.هـ (١).

وقد أرشدنا نبينا ﷺ إلى إبداء المشاعر الطيبة تجاه أخينا المسلم فقال: «إِذَا أَحَبَّ أَحَدُكُمْ أَخَاهُ فَلْيُعَلِّمِهِ أَنَّهُ أَحَبُّهُ» (٢).

فالكلام الطيب اللين، وإبداء المشاعر الصادقة، وتعهده بذلك: من أعظم حقوق الصديق على صديقه، وهي سبب في دوام العشرة، وتقوية روابط الصحبة، وإذهاب الضغائن والخواطر السلبية من النفوس.

احرصْ على حفظِ القلوبِ مِنَ الأذى فرجوعُها بعد التَّنَافَرِ يَعْسُرُ
إِنَّ القلوبَ إِذَا تَنَافَرَ وَدُّهَا مثلُ الزجاجةِ كسرُها لا يُجَبَّرُ

قال أبو حاتم رحمه الله: من أضع تعهد الود من إخوانه حرم ثمرة إخوانهم، وأيس الإخوان من نفسه ا.هـ (٣).



(١) تفسير ابن كثير ٥٩/٢.

(٢) رواه البخاري في الأدب المفرد (٤٢١)، وصححه الألباني في صحيح الأدب المفرد.

(٣) روضة العقلاء، ص ٩١.



مُدَارَاةُ مَنْ فِي طَبْعِهِ حِدَّةٌ أَوْ عَيْبٌ

الصبرُ على بعض الأصدقاء الذين فيهم جفاءٌ أو حِدَّةٌ، وخاصةً أصدقاء العمل، والمعارف العامة ومُدَارَاتِهِمْ مِنْ أَهَمِّ مَا يَنْبَغِي عَلَى الْعَاقِلِ أَنْ يَقُومَ بِهِ، وَمَنْ لَمْ يَصْبِرْ عَلَيْهِمْ طَوَاعِيَةً قَدْ يَضْطُرُّ إِلَى الصَّبْرِ عَلَيْهِمْ مُرْغَمًا، كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ (١):

وَإِنِّي إِذَا لَمْ أَصْبِرِ الْيَوْمَ طَائِعًا فَلَا بَدَّ مِنْهُ مُكْرَهًا غَيْرَ طَائِعٍ

ولنتأمل هذا الحديث العظيم: عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أَنَّ رَجُلًا اسْتَأْذَنَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَلَمَّا رَأَاهُ قَالَ: بِئْسَ أَخُو الْعَشِيرَةِ، وَبِئْسَ ابْنُ الْعَشِيرَةِ، فَلَمَّا جَلَسَ، تَطَلَّقَ النَّبِيُّ ﷺ فِي وَجْهِهِ، وَأَنْبَسَطَ إِلَيْهِ، فَلَمَّا انْطَلَقَ الرَّجُلُ، قَالَتْ لَهُ عَائِشَةُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، حِينَ رَأَيْتَ الرَّجُلَ قُلْتَ لَهُ كَذَا وَكَذَا، ثُمَّ تَطَلَّقْتَ فِي وَجْهِهِ وَأَنْبَسَطْتَ إِلَيْهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَا عَائِشَةُ مَتَى عَاهَدْتَنِي فَحَاشًا، إِنَّ شَرَّ النَّاسِ عِنْدَ اللَّهِ مَنْزِلَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، مَنْ تَرَكَهُ النَّاسُ اتَّقَاءَ شَرِّهِ». رواه البخاري (٢).

فالنبي ﷺ أخبر عائشة بأن هذا الرجل سيء، حتى لا يغترَّ به أحد، فلما دخل على النبي ﷺ، لم يُظهر له ما في قلبه، ولم يُبد له

(١) الصداقة والصديق، ص ٢٣١.

(٢) (٦٠٣٢).

التذمر والعبوس، بل تبسم وهشَّ وبش في وجهه، فما أجمل أن يستحضر هذا الحديث من يستدل على فعله بمقولة خاطئة: ما في قلبي يكون على لساني، أو يقول: أنا لا أجامل أحدًا، أو يقول: المجاملة والمداراة من قبيل النفاق والخوف والجبن، ونحو هذا الكلام المجانب للصواب.

«فلقاء رسول الله ﷺ لهذا الرجل المعروف بالبذاءة: من قبيل المداراة؛ لأنه لم يزد على أن لاقاه بوجه طلق، ورفقَّ به في الخطاب.

وقد سبق إلى ذهن عائشة رضي الله عنها، أن الذي بلغ أن يقال فيه: بس أخو العشيرة، وبس ابن العشيرة: لا يستحق هذا اللقاء، ويجب أن يكون نصيبه قسوة الخطاب، وعُبُوسَ الجبين.

ولكنَّ نَظَرَ رسولِ الله ﷺ أبعدُ مدَى، وأناته أطولُ أمداً؛ فهو يريد تعليم الناس كيف يملكون ما في أنفسهم؛ فلا يَظْهَرُ إلا في مكان أو زمان يليق إظهاره فيه»^(١).

«والفرق بين المداراة والمداهنة: أن المداراة بذل الدنيا لصلاح الدنيا أو الدين، وهي مباحة ومستحسنة في بعض الأحوال، والمداهنة المذمومة المحرمة: هي بذل الدين لصلاح الدنيا»^(٢)

قَالَ النووي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وَالنَّبِيُّ ﷺ لَمْ يَمْدَحْهُ، وَلَا ذَكَرَ أَنَّهُ أَتَى عَلَيْهِ فِي وَجْهِهِ وَلَا فِي قَفَاهُ، إِنَّمَا تَأَلَّفَهُ بِشَيْءٍ مِنَ الدُّنْيَا مَعَ لَيْنِ الْكَلَامِ. ١. هـ.^(٣)

(١) أدب الموعظة للشيخ محمد بن إبراهيم الحمد، ص ١٣.

(٢) فتح الباري ١٠/٤٥٤.

(٣) شرح النووي على مسلم ١٦/١٤٤.

وتشدد الحاجة إلى المداراة، والكلام اللين الحسن، في حق كثير من الأقارب وأصدقاء العمل، فإن لم تفعل ذلك، نفروا منك، بل وربما طالك الأذى منهم.

قال محمد بن الحنفية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ليس بحكيم من لم يعاشر بالمعروف من لا يجد من معاشرته بدءاً، حتى يجعل الله له منه فرجاً. فما أجمل المداراة، وما أعظم أثرها.

قال الحسن البصري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: حُسْنُ السُّؤَالِ نِصْفُ الْعِلْمِ، وَمُدَارَاةُ النَّاسِ نِصْفُ الْعَقْلِ، وَالْقَصْدُ فِي الْمَعِيشَةِ نِصْفُ الْمُؤُونَةِ.

والعاقل يستعمل المداراة حتى مع بعض أعدائه، الذين يعلم أنه لو كاشفهم العدا، وأبان لهم البغضاء، لألحقوا به الأذى والضرر.

وَلَمْ أَرَ فِي الْخُطُوبِ أَشَدَّ هَوْلًا وَأَصْعَبُ مِنْ مُعَادَاةِ الرَّجَالِ
بل العاقل الفطن: الذي يستفيد من أعدائه، ويرى محنتهم منحة.

عِدَاتِي لَهُمْ فَضْلٌ عَلَيَّ وَمِنَّةٌ فَلَا أَذْهَبَ الرَّحْمَنُ عَنِّي الْأَعَادِيَا
هُمْ كَشَفُوا عَن زَلَّتِي فَاجْتَنَبْتُهَا وَهُمْ نَافَسُونِي فَانْكَسَبْتُ الْمَعَالِيَا

«ذَلِكَ بِأَنَّ الْعَدُوَّ يُنْقَبُ عَنِ الزَّلَّاتِ، وَيَبْحَثُ فِي الْهَفَوَاتِ، وَطَالِبُ الْحَقِّ يَتَوَجَّهُ دَائِمًا إِلَى الْإِسْتِفَادَةِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، وَالنَّظَرُ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ إِلَى مَوْضِعِ الْعِبْرَةِ وَطَرِيقِ الْحَقِيقَةِ، فَإِذَا وَجَدَ فِي كَلَامِ الْعَدُوِّ مَعْمَرًا صَحِيحًا تَوَقَّاهُ، أَوْ عَثَارًا فِي طَرِيقِهِ نَحَّاهُ، وَإِنْ ظَهَرَ لَهُ أَنَّهُ بَاطِلٌ ثَبَّتَ عَلَى حَقِّهِ، وَعَرَفَ مَنْافِدَ الطَّعْنِ فِيهِ فَسَدَّهَا، فَكَانَ بِذَلِكَ مِنَ الْكَمَلَةِ الرَّاسِخِينَ»^(١).

ومن الحكمة ألا يشعر أحدٌ بأنك تُعاديهِ وتُضمرُّ له الكره، إلا المُعَانِدِينَ مِنَ الْكُفَّارِ وَالْفُجَّارِ.

قال بعضهم: أعظم لَخَطْرِكَ أَلَا تُرِيَّ عَدُوكَ أَنَّهُ لَكَ عَدُوٌّ (١).

وكن معهم كحال الشاعر الحكيم:

أَجْمَلُ ذَا الضَّغْنِ الْمَبِينِ ضَغْنَهُ وَأَضْحَكُ حَتَّى يَبْدُو النَّابُ أَجْمَعُ
وَأَهْدِيهِ عَمْدًا بِالْمَقُولِ وَلَوْ يَرَى سَرِيرَةً مَا أَخْفِي لَظَلَّ يُفَزَّعُ

وما أجمل ما قال الشاعر (٢):

لَمَّا عَفَوْتُ وَلَمْ أَحْقِدْ عَلَى أَحَدٍ أَرَحْتُ نَفْسِي مِنْ هَمِّ الْعَدَاوَاتِ
إِنِّي أَحْيِي عَدُوِّي عِنْدَ رُؤْيَتِهِ لِأَدْفَعِ الشَّرَّ عَنِّي بِالتَّحِيَّاتِ
وَأُظْهِرُ الْبِشْرَ لِلْإِنْسَانِ أَبْغَضَهُ كَأَنَّمَا قَدْ حَشَى قَلْبِي مَحَبَّاتِ
النَّاسِ دَاءٌ وَدَاءُ النَّاسِ قُرْبُهُمْ وَفِي اعْتِزَالِهِمْ قَطْعُ الْمَوَدَّاتِ
فَلَسْتُ أَسْلَمُ مِمَّنْ لَسْتُ أَعْرِفُهُ فَكَيْفَ أَسْلَمُ مِنْ أَهْلِ الْمَوَدَّاتِ
أَلْقَى الْعَدُوَّ بِوَجْهِهِ لَا قُطُوبَ بِهِ يَكَادُ يَقْطُرُ مِنْ مَاءِ الْبِشَاشَاتِ
وَأَحْزَمُ النَّاسِ مَنْ يَلْقَى أَعَادِيَهُ فِي جَسْمٍ حَقْدٍ وَثُوبٍ مِنْ مَوَدَّاتِ

وأحوج ما يكون العاقل لمداراته، وعدم إظهار مُعَادَاتِهِ صِنْفَانِ مِنَ

الناس:

- الذي ليس بينه وبينه حسبٌ فيكفُّ أذاه مُرَاعَاةً لِسَمْعَةِ حَسْبِهِ

ونسبه.

- ومن لا دين عنده يردعه عن الوقوع في عرضه.

بِلَاءٌ لَيْسَ يَشْبَهُهُ بِلَاءٌ عِدَاوَةٌ غَيْرِ ذِي حَسْبٍ وَدِينٍ
يُبِيحُكَ مِنْهُ عَرْضًا لَمْ يَصْنَهْ وَيُرْتَعُ مِنْكَ فِي عَرْضِ مِصُونٍ

(١) الصداقة والصديق، ص ٦٦.

(٢) الصداقة والصديق، ص ٦٧، ديوان الشافعي، ص ٤.



أَلَا تُجَادِلُهُ إِلَّا بِالْحَسَنِ

اعلم أيها الصديق المبارك أن دين الإسلام حثَّ على كُلِّ ما فيه أُلْفَةٌ ومودَّةٌ، واجتماعٌ وترابطٌ، ونهى عن كُلِّ ما يُسبِّبُ العداوةَ والبغضاءَ، والتنافرَ والفُرقةَ، ومِمَّا جاء الإسلام بالتحذير منه: المراءُ والجدالُ، ولو كان مع أحدهما الحقُّ، فإنَّ الخصامَ يُضَيِّعُه ويُبطلُه في الغالب.

ولا يعني هذا أن يتنازل صاحب الحقِّ عن حقِّه، ويترك الظالمَ والمعاندُ دون محاسبةٍ وردِّعٍ، فإنَّ لِأخذِ الحقِّ طُرُقًا ليس منها الجدالُ والخصامُ، وذلك برفعه لوليِّ الأمرِ لِيَتَنَزَعَ حَقُّه، أو بِالْمُنَاقَشَةِ الهادئةِ.

واعلم أنَّ المراءَ والجدالَ المذمومَ، هو ما يكون فيه أحدُ أمورٍ

ثلاثة:

- إما أن يكون معه حدَّةٌ وغضبٌ وقسوة.

- وإما أن يكون بلا تثبُّتٍ ومعرفة.

- وإما أن يكون عديمَ الفائدة.

ومن أقرب الأمثلة على ذلك: ما نراه في كثيرٍ من مجالسنا، من جدالٍ بعضنا لبعض، في أمورٍ تافهةٍ لا مصلحةَ من نتائجها، كأنَّ يتجادل الأصدقاء في الفريقِ الفلانيِّ، وأنه أفضلُّ من الفريقِ الآخرِ، أو أنَّ المركبِ الفلانيِّ أفضلُّ من غيره، وكذلك الجدالُ في الجماعات والحكومات، من مُؤيِّدٍ ومُعارضٍ، والنتيجةُ من هذه المُناقشات

والمُجادلات: لا شيء، سوى تعكير المزاج والخواطر، وإضاعة الوقت، وإحداثِ الفرقة والعداوة، وإطلاقِ الألفاظِ القاسيةِ والجارحةِ.

ولأجل هذا جاءت الشريعةُ الإسلاميةُ العظيمة: بالتحذير من هذه المُجادلات العقيمة، والمُناقشات المُنعقدةِ الفائدة، وإليكم هذه الأدلةُ الصحيحةُ الصريحة:

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَنَا زَعِيمٌ بِبَيْتٍ فِي رَبَضِ الْجَنَّةِ، لِمَنْ تَرَكَ الْمِرَاءَ وَإِنْ كَانَ مُحِقًّا». رواه أبو داود^(١) وحسنه الألباني.

ومعنى قَوْلِهِ: «وَمَنْ تَرَكَ الْمِرَاءَ»: أَي: الْجِدَالِ، وَذَلِكَ حَوْفًا مِنْ أَنْ يَقَعَ صَاحِبُهُ فِي الْخِصَامِ وَالغُضْبِ، الْمُسَبِّبِ لِلْعِدَاوَةِ وَالْفِرْقَةِ.

وقَوْلُهُ: «وَإِنْ كَانَ مُحِقًّا»: أَي: وَإِنْ كَانَ ذَا حَقٍّ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّهُ بَعْدَ أَنْ يُرْشَدَ خِصْمَهُ إِلَى الْحَقِّ، وَيَأْبَى خِصْمُهُ قَبُولَهُ وَالْإِذْعَانَ لَهُ، وَهُوَ يَعْرِفُ أَنَّ خِصْمَهُ مُعَانِدٌ لَا يَقْبَلُ الْحَقَّ، فَلَا ثَمْرَةَ وَلَا فَائِدَةَ مِنْ جِدَالِهِ، سِوَى تَضْيِيعِ الْوَقْتِ فِيمَا لَا يَنْفَعُ، وَإِحْدَاثِ الْبَغْضَاءِ وَالْحَقْدِ.

فَالنَّبِيُّ ﷺ ضَمَّنَ وَتَكَفَّلَ لِمَنْ تَرَكَ الْجِدَالَ وَالْمِرَاءَ - وَإِنْ كَانَ عَلَى حَقٍّ - طَلَبًا لِمَرْضَاةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَسَعِيًّا لِلْأُلُفَّةِ وَنَبَذِ الْخِصُومَةِ، ضَمَّنَ لَهُ مَكَانًا فِي الْجَنَّةِ، وَذَلِكَ بِأَنْ يُثَبِّتَهُ اللَّهُ عَلَى الدِّينِ، وَيُجَنِّبَهُ الزَّبْغَ وَالضَّلَالَ، جِزَاءً عَلَى فِعْلِهِ الْعَظِيمِ.

فَالجِدَالُ الَّذِي يُؤَدِّي إِلَى الْخِصُومَةِ وَالشَّقَاقِ وَالْوَحْشَةِ، لَا بَدَّ أَنْ نَبْتَعِدَ عَنْهُ حَتَّى تَسْلَمَ الْقُلُوبُ، وَتَصْفُو النَفُوسُ.

وتأمل - أيها الصديق - ما جاء في «الصحيحين»^(٢) أن رسول الله ﷺ

(١) (٤٨٠٢).

(٢) البخاري (٥٠٦١)، ومسلم (٢٦٦٧).

قال: «إِقْرَأُوا الْقُرْآنَ مَا اِئْتَلَفْتُمْ عَلَيْهِ قُلُوبُكُمْ»؛ أَي: اجْتَمَعْتُمْ، «فَإِذَا اِخْتَلَفْتُمْ»؛ أَي: فِي فَهْمِ مَعَانِيهِ «فَقُومُوا عَنْهُ». قال الحافظ رَحِمَهُ اللهُ: أَي: تَفَرَّقُوا؛ لِئَلَّا يَتِمَّادَى بِكُمْ الْاِخْتِلَافُ إِلَى الشَّرِّ. ١. هـ. (١).

فهذا الحديث من أوضح الأدلة والبراهين: في النهي عمَّا يُنْفِر ويُحَدِّث الخِلافَ بين المسلمين، فإذا كان قراءة القرآن والجلوسُ لسماعه، ومعرفةُ تفسيره ومعناه - وهذا من أعظم العبادات - ينتج عنه اختلافٌ: فإننا نقوم عن هذه العبادة، ولا نستمر في هذه الجلسة التي فيها القراءة والعلم، فكيف بمجالس عامة لا يوجد فيها ذكرٌ ولا قراءةٌ قرآن، ويُطرح فيها ما يُسبب الخِلاف والتفرقة، من التعرُّض للجماعات أو الأشخاص أو الحكومات، فهذه المجالس أولى أن يُقام عنها، وتُترك وتُهجر.

واعلم أن مَنْ كان شديدًا في جداله وخصامه: فهو من أبغض الناس عند الله تعالى، قَالَ ﷺ: «إِنَّ أَبْغَضَ الرَّجَالِ إِلَى اللَّهِ الْأَلْدُ الْخَصْمُ». متفق عليه (٢).

قال العلماء: الْأَلْدُ: هو الشَّدِيدُ في جِدَالِهِ، وهو الذي كَلَّمَا فُتِحَ بابٌ للجدال كان أَسْرَعَهُمْ إِلَيْهِ، وَأَقْوَاهُمْ مُجَادِلَةً فِيهِ، بلا بحثٍ وعلمٍ ومعرفة.

وهذا هو حال الكثير من الناس في مناقشاتهم وجدالهم، تأتي قضيَّةٌ من القضايا، فيَحْتَدُّ النقاش والجدال، ولم يُكَلِّف أحدهم نفسه أن يبحث ويتأكد فيما قاله.

(١) فتح الباري ١٢٩/٩.

(٢) البخاري (٢٤٥٧)، ومسلم (٢٦٦٨).

فلتجنب الصديق اللبيب هذه المُجادلاتِ مع أصدقائه، فإنها هي التي أفسدت قلوب كثيرٍ من الأصدقاء، وأوجدت فيها الوحشة والحقْد. وقد قيل: استدمم مودةَ أخيك بترك الخلاف عليه، ما لم تكن عليك منقصةً أو عَضاضةً^(١).

وإذا كان لا بُدَّ من النقاش والجدال، فليكن عن علمٍ ومعرفة، ورفقٍ وتؤدّة، فقد أمر الله تعالى نبيّه ﷺ، بأن يُجادل غيره بالتي هي أحسن، فقال تعالى: ﴿وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]. قال ابن كثيرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أي: من احتاج منهم إلى مناظرة وجدال، فليكن بالوجه الحسن برفقٍ ولينٍ، وحسنِ خطاب. ١. هـ.^(٢).

وأمر تعالى المؤمنين أن يُجادلوا الكفار بالجدال الحسن، قال تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ [العنكبوت: ٤٦].

فقد أمرنا - معاشر الأصدقاء - أن نُجادل أهلَ الكتاب بالتي هي أحسن، فما بال بعضنا يُجادلُ أخاه بالتي هي أقبح وأخشن. ولقد أكثرَ السلفُ الصالح رحمهم الله من ذمِّ الجدال العقيم، وحذروا منه ويُنوا خطره، فهذا عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يقول: المِرَاءُ لا تُعقل حكمته، ولا تؤمن فتنته^(٣).

وقال بعض السلف: إذا أراد الله بعبدٍ شراً، أغلق عنه بابَ العمل، وفتح عليه بابَ الجدال^(٤).

(١) محاضرات الأدباء للراغب الأصفهاني ١/٣٣٣.

(٢) تفسير القرآن العظيم ٤/٦١٣.

(٣) موسوعة ابن أبي الدنيا ٧/٩٤.

(٤) السير (تهذيبه) ٢/٨٢٦.

وقال آخر: دع المراء والجَدَل، فَإِنَّكَ لَنْ تُجَادِلَ إِلَّا أَحَدَ رَجَلَيْنِ،
إِما رَجُلٌ هُوَ أَعْلَمُ مِنْكَ، فَكَيْفَ تَعَادِي وَتُجَادِلُ مَنْ هُوَ أَعْلَمُ مِنْكَ؟
وإِما وَرَجُلٌ أَنْتَ أَعْلَمُ مِنْهُ، فَكَيْفَ تَعَادِي وَتُجَادِلُ مَنْ أَنْتَ أَعْلَمُ
مِنْهُ وَلَا يُطِيعُكَ؟^(١).

وقال بعض السلف: لا أماري صديقي، فإِما أَنْ أُكذِّبَهُ، وإِما أَنْ
أُغْضِبَهُ.^(٢)

صدق ﷺ، فالصديق حينما يُجادل صديقه ويستमित في إقناعه
بصواب رأيه فإنه بين أمرين:

- إما أَنْ يَخْلُصَ إِلَى خَطَأِ صَاحِبِهِ، وَكُذْبِهِ وَفُسَادِ رَأْيِهِ.
 - وإِما أَنْ يُغْضِبَهُ، وَيُحْدِثَ فِي قَلْبِهِ عِدَاوَةً، وَفِي خَاطِرِهِ تَكْذُراً.
- والعاقِلُ يَتَلَفَّى هَذَيْنِ الْأَمْرَيْنِ، فَكَيْفَ يَسْتَمِيتُ فِي تَحْصِيلِهِمَا!!.



(١) السير (تهذيبه) ٥٥٤/٢.

(٢) الصداقة والصديق، ص ٧٨.



أَلَا تَحْسَدُهُ عَلَى خَيْرٍ أُعْطِيَهُ، أَوْ فَضْلٍ اكْتَسَبَهُ

الحسد داءٌ يصعب شفاؤه، والمُبْتَلَى به لا يُمكن إرضاءه، والخيرُ كلُّ الخير في فراقه .

كُلُّ العداوة قد تُرجى إِمَاتَتُهَا إِلَّا عداوة من عاداك من حسد (١)

قال معاوية رضي الله عنه: كَلُّ الناس يمكنني أن أَرْضِيه إِلَّا الحاسد، فإنه لا يرضيه إِلَّا زوال نعمتي! (٢) .

والحاسد إنما هو في الحقيقة أَسَاءَ إِلَى المُنْعَمِ جل وعلا .

أَلَا قُلْ لِمَنْ كَانَ لي حاسدًا أَتَدْرِي عَلَى من أسأتَ الأدب
أسأتَ عَلَى الله في فعلِهِ لأنك لم ترض ما قد وهب

ولا يُتصوَّر أن يحسد صديقٌ ناصحٌ مُخلصٌ صديقه، إنما يفعل ذلك مَنْ يتظاهر بالصدقة، أو اتخذها لأجل مصلحةٍ أو حاجة، ولذا، تقدَّم التأكيد على العناية باختيار الصديق .

قال الشيخ محمد رشيد رحمته الله في قصة قاتلِ قاييل هابيل: وَأَكْبَرُ العِبَرِ فِي الآيَةِ أَنَّ قِصَّةَ ابْنِي آدَمَ أَقْدَمَ قِصَّةِ تَدْلُنَا عَلَى أَنَّ الحَسَدَ كَانَ مَثَارَ أَوَّلِ جِنَايَةٍ فِي الشَّرِّ، وَلَا يَزَالُ هُوَ الَّذِي يُفْسِدُ عَلَى النَّاسِ أَمْرَ اجْتِمَاعِهِمْ، مِنْ

(١) ديوان الشافعي، ص ٧.

(٢) مُحاضرات الأدباء ١/١١٦.

اجْتِمَاعِ الْعَشِيرَةِ فِي الدَّارِ إِلَى اجْتِمَاعِ الْقَبِيلَةِ إِلَى اجْتِمَاعِ الدَّوْلَةِ، فَتَرَى
الْحَاسِدَ تَثْقُلُ عَلَيْهِ نِعْمَةُ اللَّهِ عَلَى أَخِيهِ فِي النَّسَبِ أَوْ الْجِنْسِ أَوْ الدِّينِ،
وَهُوَ لَمْ يَتَعَرَّضْ لِمِثْلِهَا لِيُنَالَهَا، فَيَبْغِي عَلَى أَخِيهِ، وَلَوْ بِمَا فِيهِ شَقَاؤُهُ
هُوَ^(١).





البشاشةُ وطلاقة الوجه

إنَّ طلاقةَ الوجه وحسن البشاشة والبشر لهي السَّحر الحلال الجذَّاب، وهي التي تستولي على العقول والألباب، وصاحب البشرٍ محمودٌ أفعاله، مقبولةٌ هنَّاته، بخلاف العابس المُقْطَب، المُتَجَهِّم الشَّاحِب، فهو والله ممَّا يُستَعَاذُ منه، وتستولي على القلب كُرْبٌ وضيْقٌ عندَ لقائه.

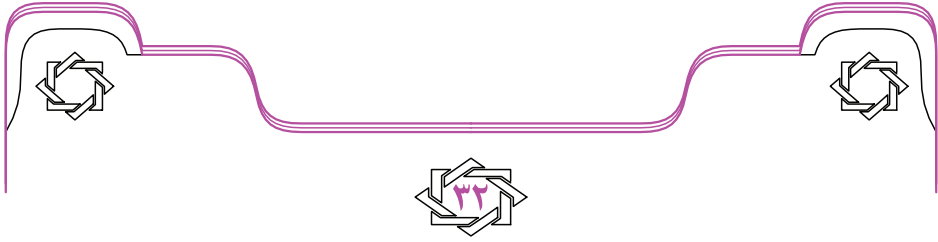
أخو البشرِ محمودٌ على حُسْنِ بشره ولن يَعْدِمَ البغضاءَ مَنْ كان عابِسًا
قال أبو حاتم رحمته الله: البشاشةُ إدامُ العلماء، وسجيةُ الحكماء؛ لأنَّ
البشرَ يَطْفِيءُ نارَ المُعاندةِ، ويُحْرِقُ هَيْجَانَ المُباغضةِ، وفيه تحصين من
الباغي، ومنجاةٌ من الساعي، ومن بَشَّ لِلنَّاسِ وجهًا لم يكن عندهم بِدُونِ
الباذِلِ لَهُمْ مَا يَمْلِكُ ^(١). ١.١. هـ.

والبشاشةُ وصدقُ الابتسامةِ أحوج ما يرجوه الصديق من صديقه،
والقريب من قريبه، بل ولا يستغني عنها أحدٌ مهما كان.

فهذا إمامنا وقودتنا رحمته الله، لا يراه أصحابه إلا مُبتسمًا، قال
جريرٌ رحمته الله: مَا رَأَيْتُ النَّبِيَّ رحمته الله إِلَّا تَبَسَّمَ فِي وَجْهِهِ. متفق عليه ^(٢).
يا أَخِي لَا تَمَلْ بِوَجْهِكَ عَنِّي مَا أَنَا فَحَمَةٌ وَلَا أَنْتَ فَرَقْدٌ

(١) روضة العقلاء، ص ٦٥.

(٢) البخاري (٣٠٣٥)، ومسلم (٢٤٧٥).

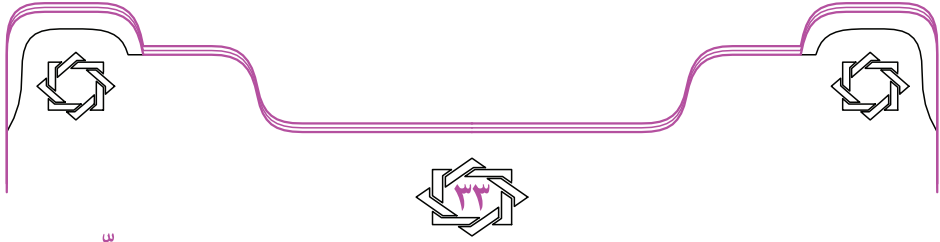


أَنْ تَرُدَّ عَلَيْهِ جَوَابًا إِذَا رَاسَلَكَ أَوْ كَاتَبَكَ

بعض الأصدقاء لا يُعير اهتمامًا لرسائل أصدقائه ومكاتباتهم له،
 فربما رآها لا تستحق الجواب، أو يقول في نفسه: إذا قابلته شكرته
 عليها، أو ناقشته عنها، فيتهاون ويُسوّف إلى أن ينسى أو يتناسى.

إذا كتبَ الصديق إلى صديقٍ فقد وجب الجواب عليه فَرَضًا
 وربما جاءت الرسالة من صديقٍ مُعَاتِبٍ، فيردُّ بردًّا باردٍ سمحٍ،
 والواجب أن يكون الردّ على قدر وأهمية الرسالة.





أَنْ تَكُونَ وَاضِحًا مَعَهُ، غَيْرَ مُتَذَبِّبٍ وَلَا مُتَقَلِّبٍ

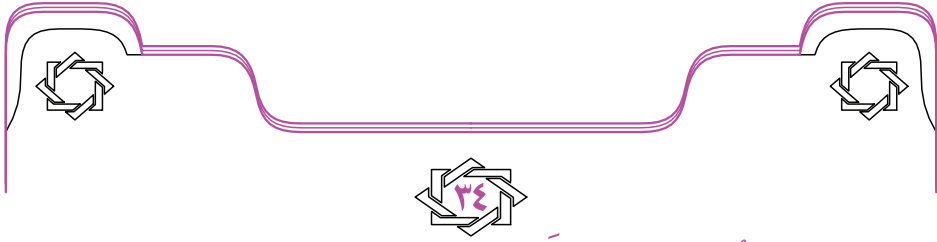
كثيرًا ما يُعاني الصديق من صديقه كثرة تقلباته، وسرعة تغيره، وعدم وضوحه، «فمودته مُتَنَفِّلَةٌ كَتَنَفَّلِ الْأَفْيَاءُ»^(١)، وأخوته مُتَلَوِّنَةٌ كَتَلَوَّنِ الْجِرْبَاءُ»^(٢) فليست سجاياه واحدة، وليست أخلاقه ثابتة، بل هو كما قال الشاعر^(٣):

أرى فيك أخلاقًا حسانًا قبيحةً وأنتَ صديقٌ كالذي أنا واصفٌ
قريبٌ، بعيدٌ، أبلهٌ، ذو فطانيةٍ سخِيٌّ، بخيلٌ، مستقيمٌ، مخالفٌ
كذلك لساني شاتمٌ لك مادحٌ كما أن قلبي جاهلٌ بك عارفٌ
تلوّنتَ حتى لستُ أدري من العمى أريحُ جنوبٌ أنتَ أم أنتَ عاصفٌ

مثل هذا الصديق من الصعب التعامل معه، والتنبؤ بردّات فعله، فيومًا يكون سعيدًا ويومًا يكون تعيسًا، ومرة لا يتقبل المزاح، ويومًا يُسرف في المزاح إلى حدّ الملل، وحينًا يُكثر الزيارة، وحينًا يُطيل القطيعة.

طورًا يُبادلني الصفاءً وتارةً ألقاه يُنكرني من البغضاءِ

- (١) الأفياء: جمع فيء، وهو الظل، والظل سريعٌ تنقله وتحوِّله.
(٢) الجرباء: دويبةٌ من فصيلة الزواحف، ذات قوائمٍ أربع، تستقبل الشمسَ نهارها وتدور معها كيف دارت، وتتلون ألوانًا، ويُضربُ بها المثل في التلون والتقلب.
(٣) الصداقة والصديق، ص ٢٥٦.



مُسَاعَدَتُهُ وَعَدَمُ التَّوَانِي فِي خِدْمَتِهِ عِنْدَ الْحَاجَةِ

بعض الأصدقاء يُحب أن يُخدَم دائماً، ويميل للكسل والخمول، بل ربما كان هو وأصحابه في نزهة أو سفرٍ فيراهم يعملون وينشطون في إصلاح غداءٍ أو تهيئة مكانٍ للجلوس، أو الاستعداد للرحيل، فلا يُحرك ساكناً!

ساعدُ صديقك في أمرٍ يحاوله فالحُرُّ للحِرِّ معوانٌ على الزَّمنِ الكسل والخمول من الصفات الرديئة خاصةً بين الأصدقاء، وينبغي لمن يجد في نفسه هذه الصفة أن يُجاهد نفسه على النشاط والمساعدة. والصديق قد يحتمل خمول وكسل صديقه أحياناً، لكنه لن يحتمل أن يتعب هو في العمل، ويجتهد في الشغل، وصاحبه مُستغرقٌ في نومه، أو يتقلب في فراشه، أو يلهو في جواله.

وأخي أنتَ ولا تنفعني لا أخا للمرء إلا من نفع





ألا ترهقه بأشغالك وحاجاتك

بعضُ الأصدقاء يظنُّ أن الصديق كالخادم، يُطلب منه كلُّ شيء، ويكلف بالأشغال والحاجات الشاقة والكثيرة!.

مَنْ عَفَّ خَفَّ عَلَى الصديق لِقَاؤُهُ وَأَخُو الحوائج وَجْهُهُ مَمْلُوءٌ وَمِنْ أَشْنَعِ مَا يَكُونُ فِي الصاحب: أَلَا يَتصلُ بِكَ أَوْ يَزورُكَ إِلَّا لِحاجةٍ، وَبعضُهُم يَتصلُ بَعْدَ أَشْهرٍ عَدَّةٍ فيقول: اتصلتُ لَلسلامِ وَالاطمئنانِ عَلَيْكَ، فَتَفْرَحُ بِذَلِكَ وَتَشْكُرُهُ، ثُمَّ يَقولُ بَعْدَ ذَلِكَ: يَا فلانَ عِنْدِي حَاجةٌ أَوْ اسْتفسارٌ!.

قال أبو حاتم رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وَلَا يَجِبُ لِلمرءِ أَنْ يُكثِرَ عَلَى إِخوانِهِ المَؤُوناتِ فَيُبْرِمَهُمْ؛ لِأَنَّ الرِّضِيعَ إِذا كَثُرَ مِصُّهُ رَبِما ضَجِرَتْ أُمُّهُ فَتَلْقِيهِ. ١. هـ. (١).

وَبعضُ الأَصْديقِ يَغْضَبُ أَوْ يَحْمِلُ فِي خَاطِرِهِ إِنْ أَخْبَرْتَهُ بَعْدَ قَدْرَتِكَ عَلَى قِضاءِ حاجتِهِ، أَوْ تَلْبِيَةِ طَلْبِهِ، وَربِما هَجَرَكَ بَعْدَ ذَلِكَ، أَوْ ثَقَلَتْ نَفْسُهُ عَلَيْكَ، وَالذي لَا يُقدِّرُ الأَصْديقَ وَلَا يَلْتَمِسُ لَهُمُ الأَعذارَ فَهُوَ فِي نَكِدٍ وَهَمٍّ.



(١) روضة العقلاء، ص ٩١.



الدِّقَّةُ فِي الوَعْدِ وَالْمَوَاعِيدِ

ما أكثر ما يستهين كثيرٌ من الأصدقاء في وُعودهم ومواعيدهم، بحجة أنه صديقه، والصديق أمره سهل، ونحو ذلك من التبريرات الساذجة.

أليس الصديق أحقُّ بأن يُعتنى به، أليس الصديق أحقُّ بأن يُحترم، وتُحترم مواعيده؟

خيرُ الصديق من الصدوق مقالُه وكذاك شرُّهم المُنون^(١) الأكذبُ
 فإذا غدوت له تُريد نِجازه بالوعد راعٍ كما يرُوغ الثعلبُ
 بعضهم يتَّفِقُ مع صديقه على موعدٍ في الساعة الفلانية، فيتأخر بعدها بعشر دقائق أو أكثر، وصديقه على أحرَّ من الجمر ينتظره، وحينما يحضر كأنَّ شيئاً لم يكن!.

وبعضهم يعدك بأمرٍ أو قضاء حاجةٍ ثم يُماطل ويؤخّر، ويتساهل ويتعدّر!.



(١) المُنون: صيغة مبالغة من منَّ؛ أي: كثير المنِّ.



أَنْ تَكُونَ صَادِقًا مَعَهُ فِي حَدِيثِكَ

الصدق ركنُ الأدب، وأصلُ المروءة، ودليلُ الثقة بالنفس، وعلامةٌ على الإخلاص والوضوح.

وَمِنْ أَقْبَحِ الصِّفَاتِ فِي الصَّدِيقِ: كَذْبُهُ عَلَى صَدِيقِهِ.

لا يكذب المرء إلا من مهانته أو فعله السوء أو من قلة الأدب

قال الله تعالى: ﴿فَنَجْعَلُ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ [آل عمران: ٦١]

[٦١]، وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ [غافر: ٢٨].

وقال ﷺ: «آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ، إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا أُؤْتِمِنَ خَانَ». متفق عليه (١).

وقال أيضًا: «إِيَّاكُمْ وَالْكَذِبَ؛ فَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ، وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَكْذِبُ وَيَتَحَرَّى الْكَذِبَ، حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَّابًا». متفق عليه (٢).

أَيُّ خِزْيٍ وَفُضِيحَةٍ لِلْكَذَّابِ، أَنْ يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ الْحِسَابِ بِأَنَّهُ كَذَّابٌ، فَيُنَادَى بِهِ وَيُعَابُ.

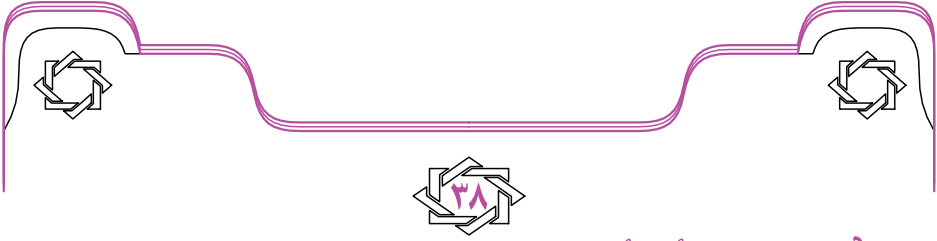
(١) (٢٥٩٨)، ومسلم (٢٢٠).

(٢) (٦٠٩٤)، ومسلم (٦٨٠٥).

لو وصفه أحدٌ بأنه كذَّابٌ لغضب وأنكر، فهل يُطيق نداء الله له بذلك؟.

لي حيلةٌ فيمن ينمّ وليس في الكذاب حيلة
من كان يخلُقُ ما يقول فحيلتي فيه قليلة





إخباره بما تُحِبُّ وما تكره من الطباع والأخلاق

من أهم ما يحتاجه الصديق من صديقه أن يُخبره بما يُحبه وما يكرهه من الطباع والأخلاق وغيرها حتى يعملَ على القيام بها، ويتجنَّب ضدها.

أمَّا أن تسكت - أيها الصديق - عن ذلك، فإنَّ صديقك قد يقترب ما يُكدر خاطرك، ويُضيِّق صدرك، ثم تلومه وتُعاتبه بعد ذلك، وأنت المُلأمٌ أولاً.

إذا كانت صورة الصديق عند صديقه واضحة، وانكشف له ما يهواه صديقه وما يُبغضه: كان ذلك سبباً كبيراً في دوام الصلحة، وسلامتها ممَّا يُكدرها.

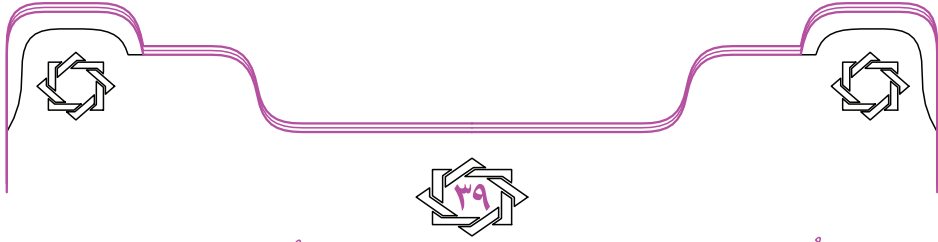
وتزداد أهمية ذلك إذا أرادوا سفرًا، وخاصةً إذا كانوا لأول مرة يُسافرون، فإذا علم كلُّ واحدٍ ما يُحبه الآخر ويكرهه كان ذلك سبباً كبيراً في توفيقهم في سفرهم، وتجنُّبهم ما يُكدرهم.

أحد الأصدقاء يُسافر كثيرًا مع صديقه لوحدهما، ويمكنون الأيام الطويلة، في قمة المتعة والتفاهم، فسُئل عن ذلك فقال: أول مرة سافرت معه قال لي: يا فلان، أنا لم أجربك في سفر، فأخبرني بما تُحبه وما تكرهه، وأنا سأخبرك أيضًا!، يقول: فعرف كلُّ واحدٍ ما يُحبه الآخر

فأتى به، وما يكرهه فاجتنبه، فكانت سفرتنا من أمتع أيامنا، ولذا سافرنا لوحدنا بعدها مرارًا وتكرارًا.

وما أكثر الأصحاب الذين سافروا ثم قطعوا رحلتهم، وما أكثر الأصحاب الذين تقاطعوا وتنافروا بسبب عدم وضوح بعضهم مع بعض.



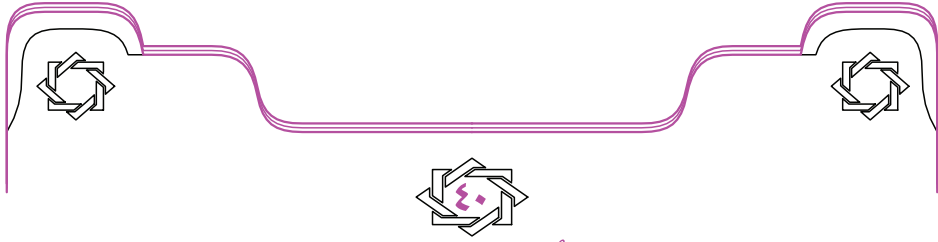


مُدَارَةٌ طَبْعِهِ، لَا أَنْ تَلْتَزِمَ بِطَبْعِكَ وَتُلْزِمَهُ بِمُرَاعَاتِكَ

بعض الأصدقاء ليس مُستَعِدًّا أَنْ يُكَلِّفَ نَفْسَهُ تَحْمِلَ بَعْضَ طِبَاعِ أَصْحَابِهِ، بَلْ هُوَ مُتَمَسِّكٌ بِطِبَاعِهِ وَأَخْلَاقِهِ وَلَوْ كَانَتْ عَوْجَاءً، ثُمَّ يَطْلُبُ مِنْهُمْ أَنْ يَحْتَمِلُوهُ، فَيَقُولُ: هَذَا طَبْعِي، فَلَا بَدَّ أَنْ تُرَاعُونِي!.
ومثل هذا قَلٌّ مَنْ يَصْفُو لَهُ صَدِيقٌ، أَوْ يَدُومُ لَهُ رَفِيقٌ.
قال بعضهم: لَا إِخَاءَ لِمَنْ يُرِيدُ أَنْ يَجْمَعَ هَوَىٰ أَخِلَّائِهِ لَهُ حَتَّىٰ يُحِبُّوا مَا أَحَبَّ، وَيَكْرَهُوا مَا أَكْرَهَ، وَحَتَّىٰ لَا يَرَىٰ مِنْهُمْ زَلَلًا وَلَا خِلَلًا^(١).



(١) الصداقة والصدق، ص ١٦٠.



اسْتِشَارَتُهُ وَالانْتِفَاعُ بِرَأْيِهِ

إِنَّ مُشَاوَرَتَكَ لَصَدِيقِكَ لَهُ أَثَرٌ كَبِيرٌ فِي زَرْعِ الثِّقَةِ فِي نَفْسِهِ، وَغَرَسَ
المحبة في قلبه، حيث يشعر بأنك تُقَدِّرُهُ وتُحْتَرِمُهُ، وَيُحَسُّ بِأَنَّ قَدْرَهُ رَفِيعٌ
عندك، وشأنه عظيمٌ لديك.

شاوَرُ أَخَاكَ إِذَا نَابَتْكَ نَائِبَةٌ يوماً وإن كنت من أهل المشورات
فالعين تُبْصِرُ مِنْهَا مَادَنِي وَنَائِي ولا ترى نفسَهَا إِلَّا بِمِرَاةٍ
والعيب الذي في عينك لا تستطيع رؤيته إِلَّا بِمِرَاةٍ، والأصدقاء هم
مِرَاتِكَ.

والاستشارة لا يستغني عنها أحدٌ مهما كان ذكاًؤه وعلمه، وهذا
ربنا جلَّ وعلا يأمر نبيه ﷺ بِأَنْ يَسْتَشِيرَ أَصْحَابَهُ: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾
[آل عمران: ١٥٩].

فإذا كان النبي ﷺ قد أمره الله تعالى باستشارة أصحابه، وهو
المُلهِمُ المُوْحَى إليه، فكيف بغيره؟.

والمشورة هي ديدنُ الحكماء والعقلاء، ولا يَسْتَغْنِي عَنْهَا الكِبْرَاءُ
والفضلاء.

فهذا عمر بن عبد العزيز رَضِيَ اللهُ عَنْهُ استشار في قوم يستعملهم، فقال له
بعض أصحابه: عليك بأهل العُدْر. قال: ومن هم؟ قال: الذين إن عدلوا

فهو ما رجوت منهم، وإن قصّروا قال الناس: قد اجتهد عمر^(١).

فانظر إلى نتيجة المشورة: هذه الحكمة البليغة.

ولا يَعدَم مَنْ استشار خيراً ونفعاً، ومكانةً وفضلاً.

قال أعرابي: ما عُيِنْتُ قط حتى يُعَبِّنَ قومي. قيل: وكيف ذلك؟

قال: لا أفعل شيئاً حتى أشاورهم^(٢).

الرأي كَاللَّيْلِ مُسَوِّدٌ جَوَانِبُهُ وَاللَّيْلُ لَا يَنْجَلِي إِلَّا بِإِصْبَاحِ

فَاضْمِمْ مَصَابِيحَ آرَاءِ الصَّحَابِ إِلَى مِصْبَاحِ رَأْيِكَ تَزِدُّ ضَوْءَ مِصْبَاحِ

وَمَنْ أَعْظَمَ مَا تَجْنِيهِ إِذَا اسْتَشَرْتَهُمْ: رَفَعُ اللُّومِ عَنكَ لَوْ أَخْطَأْتَ.

فَإِنْ هَلَكْتَ بِرَأْيٍ أَوْ ظَفَرْتَ بِهِ فَأَنْتَ عِنْدَ ذَوِي الْأَلْبَابِ مَعْذُورٌ

وَتَتَحَتَّمُ اسْتِشَارَتُكَ لَصَدِيقِكَ إِذَا كَانَ فِي أَمْرٍ يَشْتَرِكُ هُوَ مَعَكَ، فَمَنْ

الْأَنَانِيَّةُ أَنْ تَسْتَبِدَّ بِرَأْيِكَ.

وبعضُ الأصدقاء شديداً التمسك برأيه، والإعجاب بأفكاره، بل

ويكثرُ من إبداءٍ وعرضِ آرائه، ويُشير على أصدقائه دون أن يأخذ منهم،

ودون مُراعاةٍ لخاطرهم، ودون اهتمامٍ لآرائهم.

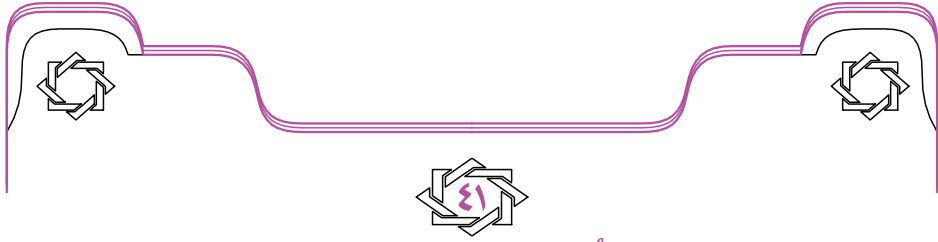
فيتحتم على الصديق اللبيب أن يقبل رأي صديقه أحياناً ولو لم يكن

صواباً خالصاً، حتى يطيب خاطرهُ، وتنسرح نفسه.



(١) عيون الأخبار ١/ ٦٠.

(٢) عيون الأخبار ١/ ٧٣.



عدمُ التدخل في خصوصياته وتقضي دقائق حياته

الصداقةُ الخالصةُ، والمحبةُ المُتبادلةُ بين الصديقين، لا تعني أن يطلبَ أحدهم ما لا يخصُّه وينفعه أو ينفَع صديقه.

وقد قال ﷺ: «مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنِيهِ»^(١).

فكلُّ أحدٍ له خصوصياتٌ لا يرضى لأحدٍ بأن يطلع عليها، أو يُدخل نفسه فيها.

وبعضُ الأصدقاء لا يَهْنَأُ له بال، ولا يقرُّ له قرارٌ حتَّى يعلم عن تفاصيل حياة صديقه، ويعلم أين ذهب، ومع من ذهب!

وبعضهم ربما اعتدى على حاجيات صاحبه، كأن يأخذ سيارته دون علمه، أو يدخل مزرعته أو بيته دون سابق علم أو إذن.

ولو علموا أن راحة البال في عدم التدخل في خصوصيات الآخرين، والتنقيب عن أسرارهم، كما شغلوا أنفسهم بهذا الخلق الذميم.

وما أجمل ما قاله أحدُ السلف رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: الْحَزْمُ حِفْظُ مَا كُفِّتَ، وَتَرْكُ مَا كُفِّتَ^(٢).

(١) رواه الترمذي (٢٣١٧)، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزياداته (٥٩١١).

(٢) مجمع الأمثال (١٠٨٧).

نعم، الحزم والعقل أن تحفظ ما كُلفتَ به وأسند إليك، وتترك وتدع ما كُفيت.

قال عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رضي الله عنه: «بِحَسْبِ الْمُؤْمِنِ مِنَ الْعَيِّ، أَنْ يُؤْذِيَ جَلِيسَهُ فِيمَا لَا يَعْنِيهِ»^(١).

نعم! إنَّ تدخل الصديق في شيء لا يعنيه، وليس من واجباته وحقوقه: لهو غيٌّ وُعدوان، حيث بغى واعتدى على حقوق الآخرين وخصوصياتهم.

وهل يرضى أحدنا أن يتدخل أحدٌ في أمورنا وخصوصياتنا؟ وما موقفنا لو تصرف أحدٌ من الناس في مقرّ عملنا، وصميم شغلنا بدون إذننا ورأينا؟



(١) شعب الإيمان (٤٦٤٢).



السؤال عن حاله بإخلاص

الصديق الوفيّ هو الذي يَهْتَمُّ بصديقه وبما يتعلّق به، ويهتمّ بأهله وأولاده، ويسأل عن أمور دينه ودُنْيَاهُ.

إنّه حينما يسمع الصديقُ كلّ هذا الاهتمام من صديقه سيَدْخُلُ السرورُ قلبه، وتعلو البهجةُ فؤاده، وسيشعرُ بمحبةٍ وإكبارٍ له.

وقد كان قُدوتنا عليه السلام يسأل أصحابه عن أدقّ التفاصيل، ويسأل الأعراب منهم هل تزوج أم لا، ويسأل أبا بكرٍ وعمر رضي الله عنهما حينما أحضرا مالهما صدقةً لله: ماذا أبقيت لأهلك! ^(١).

بل كان يسأل الأطفالَ أيضًا!، فهذا هو يسأل طفلًا صغيرًا عن طيرٍ له، فحينما زار أهله سأله بكلّ أدبٍ وعناية: «يا أبا عُمَيْرٍ، مَا فَعَلَ النُّعَيْرُ» ^(٢). وَهُوَ طَيْرٌ صَغِيرٌ.

تأمل كيف تفقد هذا الطير، وكيف سأل عن أدقّ التفاصيل، وهي في نظر الكثير يُعتبر تافهًا، فهذا من اهتمامه وشعوره بالآخرين.

كم قابلنا أناسًا تربطنا معهم صداقةً قديمةً عريقةً فلم نسألهم عن همومهم وحياتهم، فستان بيّننا وبين المربي العظيم صلى الله عليه وسلم.

(١) أبو داود (١٦٧٨).

(٢) البخاري (٦١٢٩)، ومسلم (٢١٥٠).

والبعضُ يسألُ صديقه بأسلوبٍ باردٍ، ودون اهتمامٍ وعناية .
 وبعضهم يُكرر السؤال مرارًا، فيسأله: كيف حالك، ثم بعد شيءٍ
 من الكلام يُكرر السؤال نفسه! .
 وهذا يدلُّ على أن سؤاله مُجردُ عادةٍ، لا محبةً في الاطمئنان عليه
 وعلى حاله .

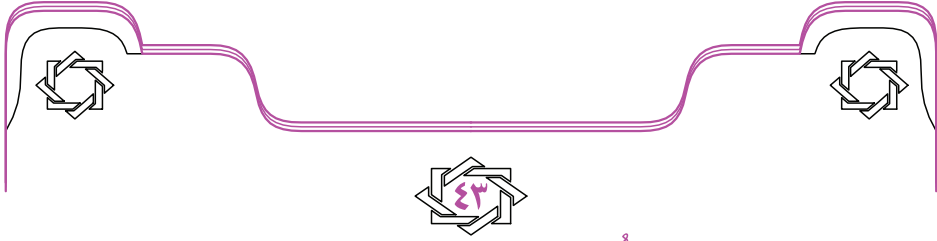
يقول الأديب الشيخ علي الطنطاوي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ^(١): «كنت مرة خارجًا من
 المستشفى، بعد عملية جراحية، لا أزال أقاسي آلامها، فلقيني صديق لي
 فقال: كيف الصحة؟» .

فظننته يسأل عنها حقيقة ورحت أشرح له ما بي وأصور ما أجد
 وتكلمت خمس دقائق بمقدار حديثي في الإذاعة - على مائدة الإفطار -
 في رمضان فلما انتهيت سكتُ ونظرتُ إليه، أسمع منه، فقال: كيف
 الصحة إن شاء الله بخير .

وإذا به لم يسمع من شرحي وبياني شيئًا» . ١. هـ .



(١) في مقالة نشرت سنة ١٩٥٦م في مجلة الإذاعة .



الدُّعَاءُ لَهُ بِظَهْرِ الْغَيْبِ

الدُّعَاءُ لِلصَّدِيقِ هُوَ مِنْ أَعْظَمِ الْأَدْلَةِ عَلَى مَحَبَّتِهِ لَهُ اللَّهُ، لَا لِدُنْيَا وَلَا لِمَصْلُحَةٍ، وَخُلُوصِ قَلْبِهِ مِنَ الْحَسَدِ وَالْغِلِّ. فَمَا أَعْظَمَ أَثْرَهُ، وَمَا أَقْلَ فَاعِلَهُ. أَلَيْسَ مِنْ حَقِّ الصَّدِيقِ الَّذِي بَذَلَ وَقْتًا وَمَالًا لِصَدِيقِهِ أَنْ يَدْعُوَ لَهُ فِي ظَهْرِ الْغَيْبِ! بَلَى.

وَاعْلَمْ أَنَّكَ إِنْ دَعَوْتَ لَهُ سَيُدْعَى لَكَ! قَالَ ﷺ: «دَعْوَةُ الْمَرْءِ الْمُسْلِمِ لِأَخِيهِ بِظَهْرِ الْغَيْبِ مُسْتَجَابَةٌ، عِنْدَ رَأْسِهِ مَلَكٌ مُوَكَّلٌ كُلَّمَا دَعَا لِأَخِيهِ بِخَيْرٍ، قَالَ الْمَلَكُ الْمُوَكَّلُ بِهِ: آمِينَ وَلَكَ بِمِثْلِ»^(١). وَتَسْتَجِدُّ لَذَّةً عَجِيبَةً لِذَلِكَ، وَتُسْتَحَسُّ بِقُوَّةِ انْتِمَائِكَ لَهُ، وَمَحَبَّةِ الْخَيْرِ لَهُ.

يَقُولُ أَحَدُ الْأَصْدِقَاءِ - وَفَقَهُ اللَّهُ - أَنَا أَدْعُو لِكُلِّ أَصْدِقَائِي وَأَحْبَابِي وَمَنْ لَهُ حَقٌّ عَلَيَّ كَثِيرًا، وَأَسْتَعْرَبُ مَنْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ: لَا تَنْسِنِي مِنْ دُعَائِكَ، فَهَلْ يَنْسَى الصَّدِيقُ الدُّعَاءَ لِصَدِيقِهِ!.



(١) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٢٧٣٣).

الختم

هذه هي أبرز وأهم حقوق الصديق على صديقه، وأعظم الآداب التي ينبغي أن تُؤدَّى له .

فليفتش كلُّ صديقٍ عن صديقه، فإن رأى فيه أخلاقًا وصفاتٍ حسنة، فليحمد الله، وإن رأى فيه خلاف ذلك: فليحرص على إصلاحه ونُصحه بالأسلوب الأجل، والطريق الأكمل، فإن كانت أخطاؤه تربو على حسناته، وزلاته كثيرةً فاحشةً، أو كان لا نفع فيه دُنيا ولا دين، فينبغي تجنُّبه والبحث عن غيره .

فالصديق الذي لا يقبل من صديقه نقدًا بِنَاءً، ولا يلتمس له الأعدار، ولا يقف معه وقت الضيق والإعسار، ولا يحتمل منه مزاحًا، ولا يعرفه إلا وقت الحاجة: لا ينبغي أن تُهدَرَ الأوقات لأجله، وتُبدَلَ الأموال تطييبًا لخاطره، وهو لا يزيدك إلا مرضًا وهمًا، وضيقًا وغمًا .

هذه هي حقوق الصديق، وهي كثيرةٌ جدًّا، فالصداقة كما تقدم ليست بالأمر الهين، وليسأل كلُّ واحدٍ منَّا هل قام بهذه الحقوق مع صديقه على أتم وجه؟، هل أصدقاؤه يقومون بها أو بأكثرها؟ .

فليرتب الصديق أوراقه، وليعرف من هو الصديق الوفيّ، من الصديق المُزيّف .



وهذا ما تيسر إملأؤه من خواطر قديمةٍ وحديثةٍ فيما يتعلق بالصديق من حقوق وآدابٍ، علَّها أن تكون سببًا في إصلاح حال الكثير من

الأصدقاء، وأن تكون سراجًا مُنِيرًا في دوام وصالهم، وقوة علاقاتهم،
وصفاء ودادهم.



تم في يوم الأحد ٧ - ١٠ - ١٤٣٥هـ

أسأل الله تعالى أن ينفع به، ويجعله مُباركًا بكرمه وجوده إنه أكرم
الأكرمين، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على رسوله وآله
وصحبه أجمعين.



المراجع

١ - القرآن الكريم.

التفسير:

- ٢ - تفسير القرآن العظيم: لابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد سلامة.
 ٣ - تفسير المنار: لمحمد رشيد رضا، تحقيق: فؤاد سرج عبد الغفار، طباعة: المكتبة التوفيقية.
 ٤ - تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: للعلامة: عبد الرحمن بن ناصر بن السعدي، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، طباعة: مؤسسة الرسالة.

الحديث:

- ٥ - صحيح البخاري.
 ٦ - صحيح مسلم.
 ٧ - جامع الترمذي.
 ٨ - سنن أبي داود.
 ٩ - سنن ابن ماجه.
 ١٠ - مسند الإمام أحمد بن حنبل: المحقق: شعيب الأرنؤوط، عادل مرشد، وآخرون، الناشر: مؤسسة الرسالة.
 ١١ - المستدرک علی الصحیحین: لأبي عبد الله الحاكم.
 ١٢ - الزهد: للإمام أحمد، تحقيق: الشيخ يحيى الأزهرى، طبع: دار ابن رجب.
 ١٣ - مسند أبي يعلى: الناشر: دار المأمون للتراث، دمشق، تحقيق: حسين سليم أسد.
 ١٤ - صحيح الجامع الصغير وزيادته (الفتح الكبير): لمحمد ناصر الدين الألباني، دار النشر: المكتب الإسلامي.
 ١٥ - السلسلة الصحيحة الكاملة: لمحمد ناصر الدين الألباني.

- ١٦ - السلسلة الصحيحة المختصرة: لمحمد ناصر الدين الألباني .
- ١٧ - كتاب السُّنَّة: لأبي بكر الحَلَّال الحنبلي (المتوفى: ٣١١هـ)، تحقيق: عطية بن عتيق الزهراني، طباعة: دار الراية، الرياض .
- ١٨ - شعب الإيمان: للبيهقي، حَقَّقَهُ وراجع نصوصه وخرَّج أحاديثه: الدكتور عبد العلي عبد الحميد حامد، الناشر: مكتبة الرشد للنشر والتوزيع بالرياض .
- ١٩ - صحيح الأدب المفرد: للألباني .
- ٢٠ - صحيح الجامع الصغير وزياداته: للألباني .

شروح الأحاديث:

- ٢١ - فتح الباري: لابن حجر العسقلاني، المحقق: عبد العزيز بن عبد الله بن باز ومحب الدين الخطيب، الناشر: دار السلام .
- ٢٢ - المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج: لأبي زكريا يحيى بن شرف بن مري النووي، طباعة: دار إحياء التراث العربي .
- ٢٣ - جامع العلوم والحكم: لابن رجب، تحقيق: معروف زريق، طباعة: دار الجيل .
- ٢٤ - دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين: لابن علان الصديقي .

اللغة:

- ٢٥ - مقاييس اللغة: لابن فارس، لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، طباعة: دار الفكر .
- ٢٦ - النهاية في غريب الحديث والأثر: تحقيق: طاهر أحمد الزاوي، محمود محمد الطناحي، طباعة: المكتبة العلمية .
- ٢٧ - تهذيب اللغة: لأبي منصور محمد بن أحمد الأزهرى، تحقيق: محمد عوض مرعب، طباعة: دار إحياء التراث العربي .
- ٢٨ - المعجم الوسيط: تأليف: إبراهيم مصطفى، أحمد الزيات، حامد عبد القادر، محمد النجار، تحقيق: مجمع اللغة العربية، طباعة: دار الدعوة .

البلاغة والأدب:

- ٢٩ - دلائل الإعجاز: للجرجاني، تحقيق: محمد رضوان الداية وفايز الداية، طباعة: دار الفكر .
- ٣٠ - الصداقة والصديق: لأبي حيان التوحيدي .

- ٣١ - روضة العقلاء ونزهة الفضلاء: للإمام أبي حاتم ابن حبان، تحقيق: محمد عبد القادر الفاضلي، طباعة: المكتبة العصرية.
- ٣٢ - عيون الأخبار: لابن قتيبة، تحقيق: د. محمد الإسكندراني، طبع: دار الكتاب العربي للنشر والتوزيع.
- ٣٣ - نهاية الأرب في فنون الأدب - موافق للمطبوع: شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري، طباعة: دار الكتب العلمية، تحقيق: مفيد قمحية وجماعة.
- ٣٤ - التذكرة الحمدونية: لابن حمدون، مصدر الكتاب: موقع الوراق.
- ٣٥ - محاضرات الأدباء: للراغب الأصفهاني، مصدر الكتاب: موقع الوراق.
- ٣٦ - الزهرة: لابن داود الأصبهاني.
- ٣٧ - كنوز المروءة في الصداقة والأخوة: لشعبان جبريل.
- ٣٨ - بهجة المجالس وأنس المجالس: لابن عبد البر، مصدر الكتاب: موقع الوراق.

الأمثال:

- ٣٩ - السحر الحلال في الحكم والأمثال: لأحمد الهاشمي، طباعة: دار الكتب العلمية.
- ٤٠ - جمهرة الأمثال: لأبي الهلال العسكري، طباعة: دار الفكر.
- ٤١ - مجمع الأمثال: لأبي الفضل النيسابوري، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، طباعة: دار.

السِّير والتراجم:

- ٤٢ - تهذيب سير أعلام النبلاء: للدكتور: محمد موسى الشريف، طبع: دار الأندلس الخضراء للنشر والتوزيع.
- ٤٣ - تهذيب حلية الأولياء: للشيخ: صالح الشامي، طبع: دار القلم، الدار الشامية.
- ٤٤ - صفة الصفوة: لابن الجوزي، تحقيق الشيخ عبد الرحمن اللادقي، والشيخ حياة شيحا اللادقي، طبع: دار المعرفة.
- ٤٥ - الأعلام: لخير الدين الزركلي الدمشقي (المتوفى: ١٣٩٦هـ)، طباعة: دار العلم للملايين.

التاريخ:

- ٤٦ - المنتظم: لابن الجوزي، تحقيق: الشيخ محمد عبد القادر عطا، والشيخ مصطفى عبد القادر عطا، طبع: دار الكتب العلمية.
- ٤٧ - البداية والنهاية: لابن كثير، تحقيق: مجموعة من المشايخ، تحت إشراف فضيلة الشيخ مصطفى العدوي. طباعة: دار ابن رجب.

السلوك، والرقاق:

- ٤٨ - مدارج السالكين: لابن القيم، تحقيق: الشيخ عبد العزيز بن ناصر الجليل، طبع: دار طيبة.
- ٤٩ - مفتاح دار السعادة: لابن القيم. تحقيق: الشيخ علي بن حسن الحلبي، طبع: دار ابن القيم، دار ابن عفان.
- ٥٠ - ذم الهوى: لابن الجوزي، تحقيق: الشيخ خالد عبد اللطيف السبع العلمي، طباعة: دار الكتاب العربي للنشر والتوزيع.
- ٥١ - موسوعة الإمام ابن أبي الدنيا: طبع: المكتبة العصرية، بيروت.
- ٥٢ - إحياء علوم الدين: لمحمد بن محمد الغزالي أبو حامد (توفي: ٥٠٥)، طباعة: دار المعرفة.
- ٥٣ - حياة السلف بين القول والعمل: لأحمد بن ناصر الطيار، الطبعة الثانية.

دواوين الشعر:

- ٥٤ - ديوان أبي العلاء المعري.
- ٥٥ - ديوان بشار بن بُرد.
- ٥٦ - ديوان الشافعي.

كتب أخرى:

- ٥٧ - زاد المعاد في هدي خير العباد: لابن القيم، الناشر: مؤسسة الرسالة، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وعبد القادر الأرنؤوط.
- ٥٨ - صيد الخاطر: لابن الجوزي، تحقيق: يوسف بديوي، طباعة: دار اليمامة.
- ٥٩ - إرشاد العباد للاستعداد ليوم المعاد: للشيخ عبد العزيز بن محمد بن سلمان.
- ٦٠ - جامع المسائل لشيخ الإسلام: بإشراف بكر أبو زيد.

- ٦١ - أحكام أهل الذمة: لمحمد بن أبي بكر أيوب الزرعي المعروف بابن القيم، تحقيق: يوسف أحمد البكري، شاكر توفيق العاروري، طباعة: رمادي للنشر، دار ابن حزم.
- ٦٢ - رسائل ابن حزم الأندلسي: تحقيق: إحسان عباس، طباعة: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.
- ٦٣ - أدب الموعظة: للشيخ محمد الحمد.
- ٦٤ - مجموع فتاوى ورسائل فضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين: جمع وترتيب: فهد بن ناصر بن إبراهيم السليمان، الناشر: دار الوطن، دار الثريا.

الفهرس

الصفحة

الموضوع

٥ المقدمة
١١ معنى كلمة الصديق في اللغة والاصطلاح
١٦ الأصدقاء على ثلاث مراتب
١٧ أيهما أصعبُ: ابتداءُ الصداقة أم دوامُها؟
١٨ متى تحكّم على أحدٍ أنه صديق؟
٢٢ التحذيرُ من جلساءِ السوء
٢٥ فضل الأخوة والصحبة في الله، والإحسان إليهم
٢٩ كيفيةُ معرفةِ الحبِّ في الله من غيره
٣١ هل الأفضل: الإكثار أو الإقلال من الأصحاب؟
٣٣ قصص ومواقف في الإحسان إلى الأخ والصديق
٣٨ حقوق الصديق الواجبة والمستحبة على صديقه
٣٩ الأول: «الوقوف معه وقت الضيق»
٤١ الثاني: «عدمُ البُخل عليه بمالك أو جاهك»
٤٥ الثالث: «مُعاملته بالاحترام والأدب»
٤٨ الرابع: «الانبساطُ معه دون إفراطٍ ولا تفريطٍ»
٥١ الخامس: «ألا تنقل إليه ما يؤلم نفسه ولا ينتفع بمعرفته»
٥٢ السادس: «التماس الأعذار له»
٥٥ السابع: «إحسان الظن به وبما يصدر منه من قول أو فعل»
٦٠ علاج سوء الظن

- ٦١ تفسير قوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اجْتَبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا يَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾
- ٦٣ **الثامن:** «مراعاة مشاعره في حال فرحه وترحه»
- ٦٥ **التاسع:** «زيارته بشرط عدم الإكثار»
- ٦٦ **العاشر:** «ألا تكثر عليه المزاح والهزل»
- ٧٢ **الحادي عشر:** «ألا يُعاتبه على أمرٍ يتوجَّسُ منه دون غيره»
- ٧٤ **الثاني عشر:** «ألا يُبالغ في المحبة والرغبة، والكرهة والنفرة»
- ٧٧ تجربة ابن حزم ونصيحته في ذلك
- ٧٩ **الثالث عشر:** «عدم التكلف في كتمان المشاعر أو إيدائها»
- ٨٠ **الرابع عشر:** «الهدية بشرط عدم المبالغة والتكلف فيها»
- ٨٢ **الخامس عشر:** «نقده بأسلوب لطيف»
- ٨٦ **السادس عشر:** «مُصَارَحَتُهُ بعيوبه بأسلوبٍ لِينٍ، وتقبُّله لذلك»
- ٩١ **السابع عشر:** «الثناء الصادق عليه، ودعمه وتشجيعه وشكره»
- ٩٤ **الثامن عشر:** «استعمال الحكمة والرفق عند سوء التفاهم»
- ٩٦ **التاسع عشر:** «الحلم، وكتمان غيظه وغضبه»
- ٩٩ **العشرون:** «عدم عتابه بقسوة، والإقلال منه إن كان بلطف»
- ١٠٣ **الحادي والعشرون:** «الصبر عليه، وستر عيوبه، والعفو والصفح عنه»
- ١٠٨ الموقف السليم مع الصديق القاطع أو المُجافي
- ١١٠ نصيحة لمن هجر وقطع صديقه أو قريبه
- ١١٥ متى تُستعملُ الشدة مع زلات الأصدقاء وغيرهم؟
- ١٢٠ **الثاني والعشرون:** «الإصلاح والسعي في تأليف القلوب»
- ١٢٢ **الثالث والعشرون:** «الاعتذار إليه واستعطافه عند خطئك وتقصيرك»
- ١٢٤ **الرابع والعشرون:** «عدم مُجاملتته، ومراعاة مشاعره دائماً»
- ١٢٧ **الخامس والعشرون:** «ألا يستمع للنمام، وأن يُلجمه ويدافع عن صديقه»
- ١٣١ **السادس والعشرون:** «أن تحفظ أسرارها، وتكتم ما طلب منك كتمانها»

١٣٢ السابع والعشرون: «مُخَاطَبَتُهُ بِاللُّطْفِ الْعِبَارَاتِ، وَإِجْبَارِهِ بِمَشَاعِرِكَ»
١٣٤ الثامن والعشرون: «مُدَارَاةُ مَنْ فِي طَبْعِهِ حِدَّةٌ أَوْ عَيْبٌ»
١٣٨ التاسع والعشرون: «أَلَا تُجَادِلُهُ إِلَّا بِالْحَسَنِ»
١٤٣ الثلاثون: «أَلَا تَحْسِدُهُ عَلَى خَيْرٍ أُعْطِيَهِ، أَوْ فَضْلٍ اِكْتَسَبَهُ»
١٤٥ الحادي والثلاثون: «الْبِشَاشَةُ وَطَلَاقَةُ الْوَجْهِ لَهُ»
١٤٦ الثاني والثلاثون: «أَنْ تَرَدَّ عَلَيْهِ جَوَابًا إِذَا رَاسَلَكَ أَوْ كَاتَبَكَ»
١٤٧ الثالث والثلاثون: «أَنْ تَكُونَ وَاضِحًا مَعَهُ، غَيْرَ مُتَذَبِّذٍ وَلَا مُتَقَلِّبٍ»
١٤٨ الرابع والثلاثون: «مُسَاعَدَتُهُ وَعَدَمُ التَّوَانِي خِدْمَتِهِ فِي عِنْدِ الْحَاجَةِ»
١٤٩ الخامس والثلاثون: «أَلَا تُرَهِّقَهُ بِأَشْغَالِكَ وَحَاجَاتِكَ»
١٥٠ السادس والثلاثون: «الدَّقَّةُ فِي الْوَعْدِ وَالْمَوَاعِيدِ»
١٥١ السابع والثلاثون: «أَنْ تَكُونَ صَادِقًا مَعَهُ فِي حَدِيثِكَ»
١٥٣ الثامن والثلاثون: «إِجْبَارُهُ بِمَا تُحِبُّ وَمَا تَكْرَهُ مِنَ الطَّبَاعِ وَالْأَخْلَاقِ»
١٥٥ التاسع والثلاثون: «مُدَارَاةُ طَبْعِهِ، لَا أَنْ تَلْتَزِمَ بِطَبْعِكَ وَتُلْزِمَهُ بِمُرَاعَاتِكَ»
١٥٦ الحَقُّ الْأَرْبَعُونَ: «اسْتِشَارَتُهُ وَالِانْتِفَاعُ بِرَأْيِهِ»
١٥٨ الحادي والأربعون: «عَدَمُ التَّدْخُلِ فِي خُصُوصِيَّاتِهِ وَتَقْصِي دَقَائِقِ حَيَاتِهِ»
١٦٠ الثاني والأربعون: «السُّؤَالُ عَنْ حَالِهِ بِإِخْلَاصٍ»
١٦٢ الثالث والأربعون: «الدُّعَاءُ لَهُ بِظَهْرِ الْغَيْبِ»
١٦٣ الخاتمة
١٦٥ المراجع
١٧١ الفهرس

